

الفِستة الأدبي

ماورا، الأشياء الجميلة

وقصص أخرى



ما وراء الأشياء الجميلة
وقصص أخرى

لوحة الغلاف للفنان :
غسان السباعي

التفيل:
إشيلية للنّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ✉ ٤٣٦٣ ، سورية



الإخراج والإشراف الفنّي : فراس السّباعي

الفِـتَةُ الأدبية

ما وراء الأشياء، الجميلة وقصص أخرى



الكتاب والقرآن والتاريخ
بمصر - سورية

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٩٦
إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ، ص.ب ٤٣٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

ما وراء الأشياء الجميلة

... ثم يسود بينهما صمتٌ
كثيب، وكأنهما عادا يفكران بالمآسي
المرؤعة التي تكمن وراء أكثر الأشياء
جمالاً

ما وراء الأشياء الجميلة

قالت سيدة الدار لضيفها الأديب الشهير:

- كم أنا آسفة لأنني أضطرت أن أخرج من البيت لأعود مريضاً عزيزاً علي.. وقد قدّرت أن أعود من زيارتي تلك قبل موعد مجيئك، فلم يُتَخ لي ذلك، أرجو ألا تكون قد مللت وسئمت، وأنت تنتظري.

قالت ذلك، وهي تخلع معطفها وتضعه مع حقيبتها على أريكة إلى جانبها.

قال الضيف:

- لا عليك... بقي أنني لم أشعر بأي ملل أو ضجر، وأنا في صالونك الرائع هذا، أسترخي على أريكة مريحة، وأستمع

بدفع لذيذ، وأنا أنظر إلى ما حولي من تحف ولوحات
أنتقيتها أنت بذوقك الرفيع، ووضعت كل واحدة في المكان
اللائق بها. وقد خطر لي وأنا أنتظرك، أن أتحدث إلى هذه
التحف النفيسة، وأستنطقها، فإذا كل واحدة منها تروي لي
قصتها العجيبة الغريبة.

قالت:

- ما أحوجني إلى مثل حديثك الحلو الطريف هذا، لأرقة
عن نفسي قليلاً، لأنني تعيسة هذا المساء وحزينة أكثر
مما تتصوراً

قال:

- لم هذا الحزن كله، وهذه التعاسة؟ وقد من الله عليك
بكل أسباب السعادة والهناء؟

قالت، وقد كادت الدموع تطفر من عينيها:

- آه... إنه بوي، كلبى العزيز! لقد أصبح عجوزاً، وابتلي
بمرضٍ عضال، فأقترح علي طبيبه أن أبقيه عنده ليتابع تطوُّر
مرضه، وقد ذهبْتُ قبل قليل لأعوده وأطمئن عليه. فقال لي
الطبيب أن لا فائدة من علاجه. إن كنت أحبه حقاً، وأشفق

عليه، فيجب أن أوافق على إعدامه لأخلصه من الألم والعذاب، وقد تعهد لي أن يميته ميتة سريعة هينة، لا عذاب فيها ولا ألم. فاستمهلته قليلاً لأفكر في الأمر. تصوّر ما أقطع أن أوافق، أنا، على إعدام بوي، الصديق الأمين الذي لازمني سنين طويلة!...

لم يردّ عليها، بل راح يتأملها ملياً، وعلى فمه أبسامة ساخرة متهكّمة!
قالت:

- ما لك تنظر إليّ هكذا دون أن تنطق بكلمة واحدة؟
قال:

- عندما رأيته قبل قليل تُطلّين عليّ، بهرتني أناقتك، كنت رائعة حقاً وأنت ترتدين هذا المعطف الثمين المصنوع من جلد النمر، وتعلّقين على كتفك هذه الحقيبة المصنوعة من جلد التمساح، المحلاة بقفلٍ من العاج.
قالت:

- يالك من إنسان قاسٍ!... أأحدّثك أنا عن مأساتي مع بوي المسكين، فتحدّثني أنت عن أناقتي؟

قال متجاهلاً كلامها:

- لا شك أن معطفك هذا قد أستهلك جلود أربعة أو خمسة نمور شابة، يدلّ على شبابهامعاً وبرها وطراوته. والنمر، كما تعلمين يا سيّدي، فارس الغابة المجلّي، كثيرُ التّيه، والعنفوان، والكبرياء، إذا ما سار في الغابة، هادراً بصوته الأَجَشَّ، تفرّ الحيوانات كلّها من وجهه، وتلتجئ إلى مكائنها، وتروح تسترق إليه النظر بكثير من الإعجاب والخوف والرّهة. فإذا خان الحظ إحداها، ووقعت فريسةً للنمر، أكل منها كفايته فقط، ثمّ تخلّى عنها للكلاب والضباع، والنسور التي تتابع دائماً خطاه من أجوائها العالية لتتنقّص على فُتات مائدته عندما يتنحّى عنها، شأنه دائماً شأن السيّد الكريم، المتلاف المثّاف. وذات مرة، كان أربعة أو خمسة نمور تتبختر مزهوةً بجماها وشبابها، في مكان ما من مجاهل أفريقية، أو أمريكا، أو في غابة من تلك الغابات الهنديّة المترامية الأطراف، عندما خرج، مع بزوغ الفجر، بضعة رجال أشداء أقوياء، قد ضاقت في وجوههم سبل العيش، فأمتهنوا صيد النمر، تلك المهنة الصعبة الخطرة، ليوفّروا لأنفسهم ولأولادهم لقمة

العيش، حين يُرضون غرور أمثالك من المترفات اللواتي
لا يبخلن بالمال الوفير في سبيل الأناقة والجمال.

قالت:

- يا لها من قصّة طريفة... يروها خيالك الجامح!

قال:

- أنتظري، لم تسمعي منها بعد إلا القليل. كان أمهر
الصيادين شاباً أسمر، فارغ الطول، ثاقب النظرات حادّها،
متين البنيان، مفتول العضلات، لم تخطئ يده الهدف أبداً
منذ مارس صيد النمر، لكن عندما وجّه بندقيته هذه
المرّة نحو النمر الشرس، الذي فُصل جلده ظهراً لمعطفك
هذا (ويشير بيده إلى المعطف المكوّم أمامه على الأريكة)،
خانه الحظّ فأخطأ الهدف فلم يُصب من النمر مقتلاً، فإذا
بالنمر الجريح يقفز، بسرعة خاطفة، قفزة واحدة، فإذا هو
فوق الصياد الشابّ، وفي مثل لمح البصر أنشب أنيابه
الحادة في عنقه، وراحت مخالبه القويّة تعمل في تمزيق
الجسد الفتّي، قبل أن يعاجل زملاء الصياد النمر بزخات
من رصاصهم تردّيه قتيلاً.. أنتظري (ويتناول المعطف

وفيفرده أمامها) إِنَّ آثار هذه الرصاصات ما تزال ظاهرةً
هاهنا وهاهنا، لم يُفلح الرّثاء الماهر في إخفائها تمامًا.

ويُخَيَّل إليها أنها ترى تلك الثقوب المرتّاة، حيث أشار بيده،
وفي الواقع قلّما يخلو معطف من أمثالها، فيبدو على وجهها
شيءٌ من الألم.

ويردّف الأديب قائلاً:

— أما كان هذا الصيّاد المسكين، الذي مات تلك الميئة
البشعة، يتمنى، وقد جاء أجله المحتوم، أن يموت ميئةً هيئةً
لا عذاب فيها ولا ألم، كتلك التي يقترحها الطبيب الماهر
لكلبك العجوز المدلل بوبي؟!

قالت:

— ما الذي دفع بك لتكرّهني بمعطفي الذي دفعت ثمنه
غالياً؟ يقيناً إني كلما أرّدتته غداً سأُخَيِّل الشابَّ منطرحاً
تحت النمر، تحمل فيه أنيابه تمزيقاً وتقطيعاً.

قال:

— ولكنّا لم ننتهِ بعدُ من قصّة معطفك، لأن الحَيَاط

الماهر الذي خاطه لم يكتفِ بجلود الأربعة أو الخمسة نمور،
فجاء أيضًا بجلود عشرة من حيوانات الفيزون اللطيفة
الناعمة، التي كانت تبرزُ كلبك بوبي وهو في عزِّ شبابه
برشاقتها وجمالها، لا سيَّما عندما كانت تمرح في الغابة،
وتتسلَّق الأشجار لتتغازل في ضوء القمر، وقد أنتقاها
الخياط كلُّها من اللون البني الداكن، الذي يتلاءم مع لون
جلد النمر، ليجعل منها ياقة للمعطف، ويحلي بها حواشيه
ورؤوس أكمامه... فأنظري، يا سيّدي الجميلة الرقيقة، أيّة
مجزرة دامية تحملينها على كتفك البضّتين عندما ترتدين
هذا المعطف الفاخر؟

قالت:

- إنّ ما يُعزّيني هو أنّ ما نقوله ما هو إلّا خيالٌ في خيال،
وإلّا ما معنى أن يكون معطفي بذاته هو الذي سبّب قتل
الصياد الشاب؟

قال:

- إنّ كلّ ما يمكن حدوثه نستطيع أن نعتبره واقعًا، نقي
أنّ ما وصفته لك ما هو إلّا من صميم الواقع، إن لم يحدث

لمعطفك نفسه، فلا بدُّ أنه حدث لآخر وآخر من آلاف
المعاطف التي ترتدبها الحسنات أمثالك.

ثم يلتفت نحو الحقيية، ويروح يتأملها بإعجاب، رافعاً
حاجبيه دهشة.

قالت:

— وماذا وراء هذه أيضاً؟ هل ستحوك منها مأساة أخرى،
ثم تروح تقنعني بحججك الدامغة أن التماسح قد أفترس
صيّاده أيضاً؟

قال:

— ليس هذا ببعيدٍ عن الواقع أيضاً، ولكنني، وقد
وجدتك رقيقة القلب، سأعفيك هذه المرة من مأساة دامية،
سأكتفي بأن أصف لك حياة إنسان كادح أمتهن صيد
التماسيح، لو رأيته الآن ماثلاً أمامك لأقشعرّ جلدك من
رؤيته، وهو حافي القدمين، منقوشُ الشعر، عاري الجسم
إلا من خرقَةٍ بالية ربطها حول خصره وتدلت حَتَّى ركبتيه،
بارز العظام من تأثير جوع مزمن، يحمل بيده ربحاً طويلاً،
هيم كالشبح حول شاطئ نهرٍ ما، قد يكون النيل،

أوالكونغو، أوالأمازون، أوأيّ نهر من تلك الأنهار التي تعيش فيها التماسيح، فإذا كلّت رجلاه من التعب، وأنهكه الجوع، ولم يحظّ بالصيد، قعد على حافة النهر، ثانياً ركبتيه إلى أعلى متكئاً عليهما بمرفقيه، فيبدو عندئذ وكأنه تمثال نُجِثَ رمزاً للجوع والحرمان، وتظلّ عيناه الزئبقيتان ترصدان النهر مدى مدّ البصر، ساعاتٍ وساعات، متذرّعاً بصبر غير جميل، فإذا أوشك أن يهبط الظلام قام فحمل رمح الطويل، وسار نحو كوخه البعيد، يجرّ رجله بخطى متعثّرة، لا يحمل لزوجته وأولاده سوى خيبة مريّة، وقد يظلّ على هذا المنوال أياماً وأياماً، لأنّ التماسيح قد أصبحت نادرةً بعد أن أمعن الصيادون في صيدها، لكثرة الرغبة في جلودها الثمينة، حتّى حرّمت بعض الدول قتلها خشيةً عليها من الانقراض. وقد يتسم الحظّ بعد لأيّ لصيادنا المنكوب ابتسامةً ضئيلة، فيسوق إليه تيارُ النهر تمساحاً صغيراً أرعن كان يسبح قرب الشاطئ، وسرعان ما ينهض الصياد الماهر فيشكّه برمح شكّة أريب متمرّس، فيصيب منه مقتلاً، ثمّ يحمله إلى السوق، حيث يبيعه لتاجرٍ جشع بعد مساومة طويلة بثمن بخس جدّاً بعد

هذا الجهد الطويل كله. أما مصمم حقيبتك هذه، فقد أراد لها أن تكون أنيقة جدًا، فأختار لها قفلاً من عاج لماع اتخذ من ناب فيل عجوز، كان قد نجا في شبابه من كيد الصيادين وفخاخهم، فلما بلغ من العمر عتياً، وشعر بدنو أجله راح يسير بخطى ثقيلة نحو غابة بعيدة، كانت الفيلة قد اتخذتها مقبرة لها، تقصدها عندما تشعر بدنو أجلها لتموت فيها مطمئنة مستسلمة لقدرها المحتوم. وكان ذنب هذا الفيل العجوز أن له نابين طويلين أغريا به الصيادين، فحفروا له حفرة ضيقة على طريق الغابة، غطوها بالحشائش الهشة، والأغصان الطرية، وسرعان ما وقع فيها الفيل المسكين، عندئذ برز له الرجال، وأنهلوا عليه ضرباً بقؤوسهم وطعنًا برماحهم، وهو لا يستطيع حراكاً في الحفرة الضيقة، حتى مات شرمية، ولو قدر له أن يعلم بمصير كلبك بوبي، لحسده أشد الحسد، على الميتة الحلوة التي سيختارها له طبيبه الحاذق!!

قالت، وقد بدا على وجهها الجميل شيء من الحزن:

- لقد عزيتي كثيراً بالنسبة لبوبي المسكين، ولكنك

كرهتني بأشيائي الجميلة، حقًا، ما أفضع مآسي هذه الحياة.

قال:

- ولعلَّ أشدها فظاعةً تلك المغلفة بالجمال.. أنظري
هذه السجادة الكبيرة الرائعة، ألا يخيّل للناظر إليها أنها
حقلُ زهر تفتح أيام الربيع في مدينة شيراز؟ إنها والله تكاد
تُغري الناظر إليها بأن ينحني ليقطف من أزهارها الغضة..
ترى كم سنة ظلّت هذه السجادة الكبيرة مشبوحةً على
النّول، تسمع تأققات الضجر، وتصغي لتأوّهات المرض،
وتشهد أنتحار الأمانى؟... وقد يكون تُساجها أطفالاً
صغارًا، أو صبايا يافعاتٍ، شدّهم ذووهم إلى النّول ليعملوا
من أجل لقمة العيش، منذ استطاعت أصابعهم الطرية
عقد خيوط الصوف، فما عرفوا مرح الطفولة، أو هوَ
الشباب، وقد لا ينجو منهم إلّا القليل القليل من مرض
خطير تحمله إلى رثاتهم الغضة يثارات الصوف حين تستقرّ
فيها.

ثم ينظر إلى إناءٍ صينيٍّ مركونٍ في زاويةٍ من الصالون،
ويقول:

— هذه التحفة الصينية التي لا تُقدَّر الآن بثمن، أنظري كيف رسم الفنان الصيني بخطين صغيرين فقط آبَسامَةً معبَّرةً عن سخريَةٍ عميقةٍ على وجه عجوز.. لعلَّه من أولئك الحكماء الصينيين القدامى، الذين كانوا يجدون سعادتهم بالقناعة بالقليل القليل، ويسخرون من تصارييف القدر في هذه الدنيا الحرقاء، الرعناء.. ترى هل أستطاع صانع هذه التحفة أن يجني، من فنه الخالد، سوى ثمن حفنات من الأرز لا تسدُّ رمقه وعياله إلا بالكاد؟ ألم يبلغك خبر ذلك الرِّسام المغمور، الذي باع لوحته النادرة، التي وضع فيها عُصاة روحه، بكأس خمرٍ يُغرق فيها همومه، وبعد مدَّةٍ وجيزةٍ بيعت اللوحة النادرة بألاف الجنيهات؟!...

وينتبه إليها، فإذا هي تُحدِّق إليه شاردة الذهن.

قال:

— ما لك هكذا ساهمة، كأنك لست معي، بماذا تفكِّرين،

يا تُرى؟

قالت:

- بل أفكر لأتني معك.. هل تستطيع أن تحزر بماذا أفكر
الآن؟

قال:

- ومن غيري يستطيع أن يحزر بما يدور في هذا الرأس
الصغير الأنيق؟ إنك تتخيلين نفسك، يا سيدتي، تنتزهين منفردةً
في دربٍ خالٍ موحش، وفجأةً تشعرين أنك مطاردة، تلتفتين
إلى الوراء.. وما هول ما ترين!... خمسة نمور شابة، وفيلاً
عجوزاً، وتمساحاً صغيراً، وصياداً شاباً مصوباً نحوك بندقيته،
ورجلاً منفوش الشعر حافي القدمين عاري الجسم شاهراً نحوك
رمحه.. إن منظرک، عندئذٍ، سيكون محزناً جداً، ومضحكاً جداً!!
قالت:

- على رِسلك، أرجوك، أنا لا أحب أن يحزن عليّ أحد،
ولا أن يضحك مني أحد.. لم هذا التهويل كله، وأنا لست
القاتلة؟

قال:

- ولكنك أنت المغرية بالقتل، الدافعة إليه، والدافع إلى
القتل يُعتبر في الشرائع كلها كالقاتل تماماً.

قالت:

- أوليس هؤلاء، الذين تتصوّرهم يطاردونني، كلّهم قتلةٌ
أيضاً؟ النمر مثلاً، أليس قاتلاً هو أيضاً؟

قال:

- سأمحك الله يا سيدتي، ودفع الله الأسواء عنك! النمر
يقتل ليحفظ حياته فقط، ليأكل، أوليدافع عن نفسه، فإذا
شبع وأمنَ عفّ عن القتل، أما نحن البشر، آفة هذا الكون،
نقتل لنتباهى، نقتل لنتفاخر وننتخم، نقتل ليرتقّه بعضنا أكثر
من الآخر.. وليس لجشعنا هذا، البغيض، حدود، وإذا بحثت
عن أسباب أيّة جريمة قتل بين الأفراد أو الجماعات لأنتهيت
إلى هذه الأسباب نفسها.

قالت:

- من المؤسف جداً أنّ كلامك صحيح لا غبار عليه، ومع
ذلك كلّه لم تستطع أن تحزر بماذا كنت أفكّر. كنت أتمنى،
يا عزيزي، وقد هالني واقع البشر، لو خلقتُ نمرة!

قال:

- يا للغرابة! أنا أيضاً لي فكرةٌ مشابهة... عندما رأيتك

ترتدين معطفك هذا، قلت في نفسي: لو خلقت هذه الجميلة
نمرةً لكان هذا الجلد أجملَ عليها وآتقَ مما هو الآن.
قالت:

- حذارٍ أن تتمنى لو خلقت أنت صيادًا أيضًا فقي
بعض ليالي القدر تتحقق الأمنيات المستحيلة!
وتشير بيدها نحوه مهلدة، وقد قلصت أصابعها ذات
الأظافر الحمراء الطويلة كالمخالب.
وراحا يضحكان.

ثم يسود بينهما صمتٌ كثيب، وكأنهما عادا يفكران
بالمآسي المروعة التي تكمن وراء أكثر الأشياء جمالاً!

الحزن الحمير

كان حزنها لا كالأحزان، صافيًا،
نقيًا، له نكهة حيمة، جعلت لحياتها
التافهة معنىً جديدًا....

الحزن الحميم

ليت هذا الليل لا ينتضي أبداً..

وكانت حزينة!..

ولعلها أول حزينة تتمنى أن يطول ليلاً، لتفرغ لحزنها وحده، تعانقه بلهفة، تطوي عليه الجوانح بحنان، ثم تمتصه على مهل، قطرة، قطرة.. فيشيع في كيانها خدرٌ لذيذ، ثقيل، كما تدبّ الحمرة في أوصال شاربٍ جديد لم يعتد عليها.

كان حزنها لا كالأحزان، صافياً، نقياً، له نكهة حميمة، جعلت لحياتها التافهة معنًى جديداً، غير معناها القديم، معناها البليد، الرتيب، الذي لا طعم له، ولا أهمية...

وكان في حضن الأفق هلالٌ صغير يرمقها من بعيد
بحنان، ويبسم لها وادعًا مواسيًا، ويرسل إليها شعاعًا خافتًا
يخترق نافذتها برفق ويحطّ على سريرها، فيبدو جسمها
الصغير في الضوء الخافت ممدّدًا بأسترخاء وأستسلام،
أستسلام للحزن. عيناها الواسعتان مفتوحتان، تلتمع فيهما
الدموع، وتجري وثيدةً على خديها، ثم تتساقط قطرةً قطرةً
على الوسادة.

وسادتها لم تشرب الدمع قبل الآن، ولا تعرف طعمه
أبدًا..

من تحت الوسادة كان يُطلّ طرف رسالة تلقّتها في صباح
يومها هذا، حملت في طياتها بناء هذا الحزن الذي ينطوي
على نشوة حلوة لذيدة مفرحة..

هل سمعتم مرة أن للحزن نشوة؟

وهل يجتمع الضدان: الحزن، والفرح؟

نعم - قالت في نفسها - يجتمعان! وإن حزني لحميم

* * *

لقد رأت مرةً قسوةً، وحناناً، في عيني شابٍّ أسمر من أرض الجزائر. لقد نسيت لون عينيهِ، وقسمات وجهه، أما نظراته القاسية الحانية فما نسيتها أبداً. كلما مرّت ذكراه بخاطرها لم ترَ منه سوى عَينين تشعّ منهما نظراتٌ صارمةٌ وادعةٌ معاً، فتتكمش وتتضاءل أمام قسوتهما وصرامتهما، وترتاح وتطمئنّ إلى حنانهما ووداعتهما. كلُّ ما به صلةٌ - ولو كانت ضئيلةً جداً - بصاحبها هذا، يُذكرها به، إذا رأت، مثلاً، رئيس النادي الذي تنتمي إليه، تذكّرت صاحبها، وتذكّرت كيف ناداها رئيس النادي ذات صباح، وقال لها:

- سأكلُ إليك مهمّةً صغيرة، وستعجبك جداً.. أنت - كما أعرف - تقدّسين الجزائر، وكلُّ مَنْ ينتمي إلى الجزائر، سأطلب منك أن ترافقي شابين جزائريين في تجوالهما في دمشق، وقد جاءا البارحة من خطوط النار بمهمّةٍ سياسيّةٍ سرّيّة، وسيغادران دمشق اليوم مساءً بالطائرة، وقد أحبّ نادينا أن يُكرّمهما، على جري عادته في تكريم ذوي الشأن من أبناء العروبة كلما هبطوا دمشق، ولكنّهما اعتذرا عن هذا التكريم خوفاً من أن يشيع

أَسْمُهُمَا، وهذا ربما أساء إلى المهمة التي قَدِمَا من أجلها،
وقد أَخَرْتُكِ أَنْتِ من بين جميع الأعضاء، لأنِّي أعرف لباقتك
وحُسن تصرُّفك وإجادتك اللغة الفرنسيَّة، لأنهما لا يتكلَّمان
العربيَّة إلَّا بصعوبة، فنرجو أن تكوني أَنْتِ دليلهما، وأن
ترافقيهما مساءً إلى المطار لتودَّعيهما...

وتشكر الرئيس على اختياره لها، وتذهب معه إلى أحد
الفنادق حيث يقيمان لتتعرَّف عليهما.

كان أحدهما رُبَّع القامة، هادئًا، يبدو خجولًا، وكان الثاني
طويلًا، أسمر، عميق الصوت، في عينيه صلابة جنديٍّ مقدام
ووداعة طفلٍ بريء.

كيف مضى ذلك اليوم؟ لا تدري!..

لكم تحدثت إليهما عن دمشق وكفاحها، وعن الوحدة
العربيَّة والقوميَّة العربيَّة! وكم تحدَّثنا إليها عن أرض البطولات،
وعن التضحية والفداء، حيث يراق الدم رخيصةً، وتُبذل
الأنفس في سبيل كلِّ شبرٍ من أرض الوطن! وكم تلهفت
على أن تُريق دمها هناك في تلك الأرض العربيَّة!

ولن تنسى جلستها معهما، في مقهى المطار، حول مائدة صغيرة، يحتسون القهوة، وينتظرون الطائرة التي تأخر موعد قيامها ساعة كاملة. كان الطويل الأسمر يلحّ عليها أن تتحدّث بالعربية، ليملاً سمعه من حلاوة ألفاظها، وعذوبة صوتها عندما تنطقها، ويبيدي أسفه الشديد وتحزّقه، لأنه لا يستطيع أن يُعبّر بلغته بطلاقة كطلاقتها هي. وكانت كلما شُغلت عنه قليلاً، وهي تتحدّث إلى رفيقه، ضبطته يتفحصها بنظراته الجريئة من رأسها إلى قدميها، وما أسرع ما يللملم نظراته عنها وينظر أمامه إلى المائدة، وينقر عليها نقراتٍ متتابعة، وهو يقول بتعجب:

— دنيا..

وتشعر هي بشيء حارّ يتمشّى في خديها لا عهد لها به. وما كانت يوماً خجولاً، فما بالها اليوم تشعر بأرتباكٍ أمام هذا الجزائري الشاب؟

وتُداري الموقف بأن تسأله:

— وماذا تقصد بقولك: دنيا؟

قال:

- أقصد أنها دنيا غريبةٌ عجيبة، كيف يَسِرَت لنا المجيء
من الجزائر الملتهبة إلى دمشق الوداعة؟ وكيف أُتيح لنا أن
نتعرّف عليك، أنت بالذات؟

قالت:

- وأيّ عجبٍ في أن يجتمع أبناء الوطن الواحد في بقعة
من بقاعه الواسعة، وأن يتعرّفوا على بعضهم بعضاً؟

ويجبها:

- لا عجب في ذلك أبداً، ولكن هناك شيئاً آخر غريباً
عجيباً في هذه الدنيا، آه لو تدركينه!

قالت متباهة:

- ألا يمكنك أن تشرحه لي؟

قال:

- إنّ شرحه طويل جداً، هل تسمحين أن أكتبه لك في
رسالة؟

قالت:

- سأنتظرها منذ هذه اللحظة.

ويقول لها،

- وعندما تقرأينها ستقولين: دنيا! كما أقول الآن.

ويضحكان بودّ وحرارة.

ويُعلن عن قيام الطائرة. فيقفان أمامها، ويصافحها صديقه
أولاً، ثمّ يصافحها هو، ويضغط يدها، ويقول مرة ثانية وهو
يتفرّس في وجهها، بنغمة ممطوطة:

- دنيا!

لكم تمتّ ألا تدع يده تفلت من يدها!

ولما سار، هو ورفيقه، نحو الطائرة، ثابتي الخطى، مرفوعي
الرأس، كانت هي تشيعهما بنظراتٍ والهة، وتشعر أنّ شيئاً
ينسلخ عن قلبها.

وتظلّ واقفةً مكانها، تلوّح لهما بمنديلها... حتّى غابت
الطائرة عن الأنظار...

* * *

لكم أنتظرت الرسالة ...

ولكنها لم تأتِ.

مضى شهرٌ، شهران، وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبها...

كان التشاؤم يغلب على طبعها، وقد أستولى عليها منذ صُدمت في مطلع حياتها صدمة عاطفية جعلتها تسيء الظن بكل شاب يتقرب إليها فتقصيه عنها بلباقتها الأصلية، لأنها تشك في صدق عاطفته. وراحت أيام حياتها تجري هادئة رتيبة منذ ودّعت مقاعد الدرس لتستقبل منبر التدريس وتصبح مدرّسة، وتكتسب قسماً وجهها الحلوة، مع الأيام، سماتٍ جديةً تعبّر عن شخصية قوية ذكية تثير إعجاب الشباب وتقديرهم، ولكنها تقف حاجزاً منيعاً بينها وبينهم، مما جعلها توشك أن تفقد ثقتها بتأثير أنوثتها بالرجال.

وتجيء الرسالة أخيراً.

وها هي ذي تُطلّ من تحت وسادتها، وتُشيع الحزن في غرفتها.

لم تأت منه هوا

لقد جاءت من صديقه... ينعاها إليها، ويقول لها:

«لقد أسْتُشْهِدُ أمامي، وكانَ أَسْمُكَ آخِرَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا،
وأَطْبِقُ شَفَتَيْهِ عَلَيْهَا، إِلَى الأَبَدِ...»!!
أَيُطْبِقُ شَفَتَيْهِ عَلَى أَسْمِهَا؟ أَكَانَتْ غَالِيَةً عَلَيْهِ إِلَى هَذَا
الْحَدِّ؟!

ويكاد الحزن يصهر قلبها، وهي في نشوة حلوة.
حياتها التافهة أصبحت ذات معنى عميق لذيد، ولو أنه
ينطوي على حزن أليم... ولكنه حميم.

* * *

وتراودها فكرةٌ، لا تلبث أن تستولي عليها، وتستأثر بها،
وتصبح هدفها الذي ترمي إليه:
لَمْ لَا تَذْهَبْ إِلَى هُنَاكَ، إِلَى أَرْضِ البَطُولَاتِ، لَتُجَاهِدَ
حَيْثُ جَاهِدَ، وَتُرِيقَ دَمِهَا حَيْثُ أَرَأَى دَمَهُ!!؟

مِطْفَلها المِطال

اتحسبني أرغب في طفلي إن لم
يكن صورة عنك؟ ستظل وحدا
طفلي المِطال ١١

طافها المكَلَّل

كان الصمت الجاثم على الدار يُضفي عليها كآبةً
ووحشة، فتبدو لعينيه وكأنها معبدٌ مهجور قد تخلَّى عنه
رؤّاده بعد أن كفروا بدينهم.

وتهم بين الحجرات، يُخيَّل إليه أن لكلِّ قطعةٍ من الأثاث
عشراتِ العيون تحمِلُ به عاتبةً، كأنها تسأله بالبحاح: أين هي
سَيِّدة الدار؟ أين هي ذات اليدين الطريّتين اللتين كانتا
تتعهدان، بحنانٍ أمٍّ، كلَّ ما تضمُّه هذه الدار الصغيرة الأنيقة؟

ويصمت، كمدنِّبٍ أثيمٍ أمام قضائه، وقد تنبّه ضميره،
وراح ينهشه الندم. وينتهي به المطاف إلى غرفة النوم،
فيدخلها خاشعاً متهيباً، يُجبل فيها نظراتٍ حزينة.

على هذا المقعد الصغير، الجاثم أمام المرأة، كانت تجلس
زوجهُ «صفاء» لتترّين، كم كانت تلذّ له مراقبتها وهي تُرجل
شعرها الأسود الكثيف، وتدمدم بأغنيةٍ مرحة، ثم ترشّ
العطور على جسدها البضّ، ثم تمرّر أحمر الشفاه على
شفتيها الممتلئتين! من هذا المشجب كان يتدلّى قميص
نومها الزاهي إلى جانب منامته، وكان السريران المتلازمان
مرتّبين كشأنهما دائماً!

ويرتمي على سريرها، بعد أن يُزَيح عنه الغطاء، ثم يدفن
رأسه في وسادتها، يُخَيِّل إليه أنها لا تزال تحتفظ بشيء من
عبقها الفاغم فيستنشقه بنهم!

الآن، حيث لا أحد يراه، يستطيع أن يترك نفسه على
سجّيتها.. يستطيع أن يخلع قناعه المزيف، قناع القساوة الذي
فرضه على نفسه وقد تعب من حمله، ويبدو حنقه فيبيكي
كطفل صغير أضعاف ذويه في بلد غريب.

كان يحبّ زوجته صفاء حبّاً عنيقاً، كانت وفق ذوقه
تماماً، حتّى كأنه قد صاغها بيديه كما يرغب ويشتهي،
وكانت سعادتهما بسيطةً ولكنها عميقة.



ويتذكر صباحاً شتوئاً، ولما يمض على زواجهما إلا سنة
وبعض سنة، كيف قالت له وهي تتمطى في سريرها،

- لا أدري لم لم أحبل حتى الآن؟؟.. أكثر صديقاتي اللواتي
تزوجن حين تزوجت أصبح لديهن أطفال إلا أنا.. ألا تجد
أنه من الضروري أن أعرض نفسي على طبيب متخصص؟؟
ويلوي شفتيه، ثم يقول بلامبالاة:

- لم تستعجلين مجيء الطفل ولم يمض على زواجنا إلا
القليل؟

قالت، وقد شغّت من عينيها ومضات حنونة:

- لقد آن أن يكون لنا طفل، له ملامحك الجذابة.. تصوّر
ما أحلاه لو كان بيننا الآن، نناغيه ويناغينا، ويزحف من
سريري إلى سريرك!

ويقاطعها قائلاً:

- ولكن لا تتسنى أن الأطفال مزعجون في أكثر الأحيان،
وأنا أشد الناس أنزعاجاً منهم.

قالت:

- ما من أحد ينزعج من طفله، ولو كان صاحب مزاج
مثلك.

ويضحك، ثم يقول لها:

- أخشى، إن جاءنا طفل، أن يشغلك عني، وأنا غيور
كما تعلمين! أريد أن أظلّ وحدي طفلك المدلل!

وتسحب من السرير، وهي تقول منددة:

- إن الرجال أنانيون دائماً.. لا تخشَ يا عزيزي، شيئاً، إنَّ
قلبي يتسع لك ولعشرة أطفال معك.

ويظلّ في سريره يفكر، ويقول في نفسه: لو ذهبنا إلى
الطبيب، وأتضح أنّ صفاء عاقر، فأني مصيبة تحلّ بنا؟ لا شكّ
أنّ سعادتنا ستستحيل تعاسة. أنا لا يهمني الأمر كثيراً، أما
هي.. لشدّ ما ترغب في أن تصبح أمّاً.. إنني ألاحظ هذه الرغبة
في عينيها كلّما رأيتهّا تداعب طفلاً، وما أكثر ما تداعب
الأطفال: كأنّ عاطفة الأمومة تمور في صدرها لاهفة، ملحاحة..
وإذا لم تنجب سأضطّر لأن أتحمل طول حياتي عبء مداراتها من
عقدةٍ نفسيّة لا بدّ أن تصيب كلّ امرأة عاقرًا..

ثم يجد نفسه يتساءل: لماذا نعتقد أنّ المرأة هي المسؤولة
أولاً عن العُقم؟؟ ويصمّم أن يذهب هو أولاً ويستشير
الطبيب دون علمها.

وما يلبث أن يضحك، ويتساءل: أيمكن أن أكون أنا
عقيماً؟ ليس في الدنيا مستحيل، فلأجرب إذا...

* * *

عندما خرج من عيادة الطبيب، كان يشعر كأنه يتضاءل
أمام الناس، رغم قامته الفارحة، ومنكبيه العريضين. إنّ أيّ
صعلوك، أيّ قزم من الرجال، يستطيع أن يمنح امرأته
أطفالاً، أمّا هو فعاجزاً.. وتستحيل كلمة عاجز هذه إلى
خنجر حاد النصل ينغرز في قلبه كلما ردها..

لا.. لن يدع أحداً يكتشف سرّه، حتّى صفاء، زوجه
الحبيبة، سيتخلّى عنها، لتذهب هذه البلهاء، التي تحلم
بالأمومة ليل نهار، ولتحرّ عن زوج آخر يستطيع أن
يمنحها الولد، أمّا هو فعاجز، لا يستطيع أن يملأ عينيها
بعد اليوم..

ولأول مرّة يشعر نحوها بكُره وموجدة، إنها الحقيقة المؤلمة، ولكنها قَدَرَهُ الذي لا يستطيع أن يتغلّب عليه، كما أكد له الطبيب.

ولا يشكّ أبدًا بأنّ صفاء إذا علمت بسرّه، ستظلّ تلك الزوجة الوفيّة المخلصة، وستكبّ أمامه رغبتها بالولد ما أستطاعت، وستدّاريه ما أمكنها، إنّها من عنصر نبيل طيّب، ولكنه لا يستطيع أن يتحمّل شيئًا من هذا. إنّهُ يفضّل ألف مرّة أن يُدارها هو، على أن تُداريه هي.. إنّ كرامته تأبى عليه ذلك.

* * *

وبدأ بالتنكّر لها ليخلق أسبابًا توجب الطلاق.

فراح يسهر كلّ يوم خارج البيت، يقامر، ويسكر، ثمّ يعود مع الفجر ثملًا يترنّح، فإذا عاتبته أنتهرها بقسوة كان يتكلّفها بادئ الأمر، ثمّ تصبح عادةً مألوفة لديه تزداد مع الأيام ضراوةً، وكانت صفاء تتحمّل تنكّر زوجها لها بصبرٍ عجيبٍ غريب، لا تتحمّله إلّا كلّ أنثى متفانية بحبّ رَجُلها.

ولم يصل إلى ما كان ينشده، كان كلما ازداد عتًا
ازدادت هي صبرًا وأستكانة.

ويظن أخيرًا إلى أن لا شيء يثير الزوجة كأمرأة أخرى
تحتل مكانها، وما أكثر النساء اللواتي يستطعن أن يمنحنه
اللذة دون أن يسألنه الولد.

ويتخذ لنفسه خليفة، يتعمد أن يصطحبها إلى الملاهي
والمنتزهات، جهارًا أمام الناس، كي يبلغ الخبر زوجته. ولم يعد
يأوي إلى داره إلا قليلًا. كان أهله وخلانه يعنفونه فلا يُعير
كلامهم أية أهمية.

وينفذ صبر صفاء حين يمعن زوجها في غوايته، وتضطر
أن تطالبه بالطلاق مهددةً عساه يرعوي، وإذا هو يجيبها إلى
طلبها بسرعة أكثر مما كانت تنتظر.

لقد نجحت خطته أخيرًا ووصل إلى ما يريد.

سيقول الناس: مسكينة صفاء! إنها امرأة رائعة، ولكن
زوجها فظ رديء، وقد طلقها ظلمًا ربما لأنها لم تنجب له
إن هذا أحبُّ إلى قلبه من أن يقولوا عنه: مسكين له

زوجة رائعة، ولكنها تعسة لأن زوجها عقيم ولا يستطيع أن
يمنحها سعادة الأمومة!

ويمضي على طلاقهما ستة شهور، وهو يوهم نفسه أنه
قد أنتصر حين أستطاع أن يخفي سرّه عن الناس، ولو أنه
دفع الثمن غالياً.

* * *

وذات ليلة بلغه خبرٌ كاد يميته قهراً:

صفاء ستزوّج بعد أيام برجل من أصدقائه كان يغار منه
كلّما رآه يحوم حولها. صفاء، زوجته الرائعة، التي كانت تملأ
هذا البيت سعادةً ومرحاً، سيمتلکها رجلٌ غيره!.. ستنسئ
حبّه، وتنسئ، أيضاً، قساوته وشراسته، ولن يصبح شيئاً
مذكوراً بالنسبة إليها.

وتنبثق غَيرته كما تنبثق نارٌ من تحت رماد. ويشعر
بالمهزيمة كما لم يشعر بها أبداً.

ولأوّل مرّة يعترف لنفسه بأنّه كان مخطئاً، ولكنّ الوقت
قد فاتته قبل أن يتدارك خطاه، فليبك وليتألم كما يشاء له

حظه العاثر، ويدفن رأسه في وسادتها التي راحت تشرب
دموعه بنهم وتشف.

وإذا هو يرهف السمع حين يتناهى إليه صوت صرير
مفتاح في قفل الباب.

من عساه يكون في منتصف هذا الليل؟؟..

ويتذكر أنّ صفاء أحتفظت بمفتاح دارها على سبيل
الذكرى.

ويظلّ سادراً في مكانه، ينتظر ملهوقاً ويتساءل: أيّمكن
أن تقع المعجزة وتعود صفاء؟؟..

وإذا هي تفتح باب غرفة النوم، وتُطلّ بوجهها المشرق.
كاد الفرح أن يفلجه، فراح يحملق بها ذاهلاً كأنه لا يصدق
ما ترى عيناه.

وإذا هي تجلس على حافة السرير، وتقول له:

- لقد جازفتُ وعدتُ إليك.. أنا لا أستطيع أن أتصور
نفسي بين ذراعي رجل آخر! أنت تحبّني.. لأنني أوّمن
بذلك، ولم أصدق أبداً أنّك تكرهني، مهما حاولت أن تثبت

لي ذلك.. كأن عين حسود أصابتنا، أو ساحرًا لثيمًا فرّق
بيننا.

ويرتمي على قدميها يبّللها بدموعه، وفي لحظة الضعف
هذه يتنازل عن كبريائه، ويقول لها:

- تخليّ عنك حين عرفت أنّني لا أستطيع أن أمنحك
سعادة الأمومة!..

وتضمّ رأسه إلى صدرها وهي تقول له:

- أتصدّق أنّي حزرت ذلك قبل أن تقوله لي، ولذا عدت
إليك.. يا مجنون! أتحسبني أرغب في طفلٍ إن لم يكن صورةً
عنك؟ ستظلّ وحدك طفلي المدلل!!

كامي

ولكنّ الذي أفسد علينا روعة
اللحظة الأخيرة صوتُ صرخةٍ مدوّيةٍ
أرسلتها إحدى الطالبات من
الصفوف الأخيرة تبعها نسيجٌ
مكيوت.

كاذب

كنا ثلّة من الأصدقاء أعتدنا أن نمضي السهرة، كل يوم،
في بيت واحد منا. وما أدري كيف دار الحديث ذات مرة
حتى انتهت إلى معالجة مأساة عتيقة، ما برحت تتكرّر دائماً
أبداً في كلّ طبقة من طبقات المجتمع، وفي كلّ بلدة من
بلدان العالم.. مأساة الفتاة التي يُعرّز بها عشيقها فتستسلم
إليه، وقد أسكرها الهوى، وطوّح بها الحب، فلا تصحو من
سكرتها إلّا بعد أن تُثمر الخطيئة. وقد يغدر بها الحبيب
فيتخلّى عنها، ويتركها وحدها تكافح بلا نصير، بعد أن
ينبذها المجتمع ويتنكر لها الأهل والأصدقاء.

ويحتدم الجدل حول الموضوع الأزلي، وكيف يجب أن

يكون موقف المجتمع من الضحية.. فتروي لنا إحداهن
الحكاية التالية:

* * *

كنت، أيام دراستي في باريس، نزيلةً دار الطالبات
الأجنبيّات، تشرف على إدارتها راهباتٌ فرنسيّات، كنّ يسارين
روح العصر الحديث إلى أبعد حدّ تسمح به تقاليد الرهبنة.
ولعلّ أحلى ما كان في دار الطالبات هذه، هو الجوّ الوديّ السائد
بين الجميع على اختلاف أجناسهنّ ومللهنّ. ولا أكون مغاليةً
إذا قلت لكم إنه كان بيننا طالباتٌ من جميع الألوان والعروق.

كانت الطالبة «كادي» أحبّ الطالبات إلى القلوب
جميعاً، هي زنجيّةٌ، فاحمة السّواد، ومن بلاد السنغال على
ما أذكر، حلوة القسمات، خفيفة الظل، ذات عينيّن
واسعتين مضيئتين، تلمعان كألماسيتين في عتمة، وأسنانٍ
نضيدة ناصعة البياض، تبرق دائماً بين شفّتها الممتلئتين،
فكادي كانت لا تُرى أبداً، إلّا ضاحكةً أو مبتسمة.

وإن أنسّ لا أنسَ رقصات كادي التي كانت ترقصها لنا
في حفلات السّمر التي تقيمها الدار بين الحين والآخر.

كانت كادي ترتدي ألبستها الوطنية الزاهية المزركشة
فتبدو نصف عارية، ويظهر لنا جمال جسمها البديع التكوين،
والذي يصلح نموذجاً لرشام فنان، ثم تُدير كادي أسطوانةً
يضجُّ منها قرع الطبول، وتبدأ رقصها الجنوني.. حتَّى ليخيَّل
إلينا أحياناً، أننا في مجاهل أفريقيا وقد برزت لنا جنينة من
جننيات الغاب.

ولعلكم تجهلون، كما كنت أجهل أنا أيضاً، أنَّ أسم كادي
ما هو إلَّا تصغير أسم «خديجة»، كما أصطلح على لفظه
السنغاليون. فكادي، إذًا، فتاة مسلمة، وكانت تنتمي إلى
أسرة عريقة في بلادها وغنيّة جداً.

ولكن حدث ما لم نستطع له تفسيراً.. هو هذا التغير
الذي طرأ على كادي فأحالتها فتاة أخرى لا عهد لنا بها، لقد
أنقلب مرّحها كآبة، فأصبحت لا تُرى إلَّا متجهّمة الوجه،
كليلة العينين، ساهمة، شاردة، تُؤثّر العزلة في غرفتها، فلا تُرى
بيننا إلَّا في مواعيد الطعام. وإذا سألتها إحداًنا - وقد تكون
من أعزّ صديقاتها - عمّا أعتراها؟ أجهشت كادي بالبكاء،
وتولّت هاربة دون أن تحير جواباً..

وكان من تقاليد دار الطالبات أن تُكَلَّف، بين حين وآخر، أحد القسّس ليعظ البنات ويهديهنّ إلى سُبُل الفضيلة والرشاد. وكانت الراهبات حريصاتٍ على أن تحضر الطالبات دون استثناء هذه المحاضرات التي يلقيها القسّ. وذات مرة كان موضوع العظة يدور حول هؤلاء الفتيات، اللواتي يتبعن أهواءهنّ وهنّ لا يدركنّ أنهنّ ينسجن مأساتهنّ.

وكان الواغظ قد أصطحب معه فيلمًا سينمائيًا عرضه علينا.. وكانت قصّة الفيلم تدور حول صبيّة ريفيّة يُغرّر بها رسّامٌ شابّ، كان قد هبط قريتها ليرسم بعض مناظرها، فتهرب معه إلى باريس، حيث يعيشان معًا مدّة ليست بالقصيرة. وكان الرسّام قد اتخذ الفتاة نموذجًا لصورة، ثمّ تثمر الخطيئة، فتطلب منه بإصرار أن يتزوجا. فإذا هو يتنكّر لها، فتخرج عنه محطّمةً يائسة، تهيم في شوارع باريس، وعند المساء ينتهي بها المصير إلى الانتحار، فتُلقي بنفسها في نهر السين.

وكان المشهد مؤثّرًا جدًّا، قد أبدعت الممثلة في تمثيله كلّ

الإبداع، ولكن الذي أفسد علينا روعة اللحظة الأخيرة صوت صرخة مدوية أرسلتها إحدى الطالبات من الصفوف الأخيرة تبعها نشيج مكبوت. وقبل أن يضاء النور، تقوم إحدى الراهبات فتأخذ بيد الطالبة الباكية، وتخرجها من الصالة قبل أن يراها أحد.

وأستطعت أنا أن أتبين كادي، وهي تخرج مع الراهبة، فعرفتها رغم الظلام، فقد دلني عليها قوامها الفارع.

ويبتدئ الهمس بين الطالبات..

كان واضحاً لدى الجميع، أن الفتاة التي صرخت قد تأثرت بالمشهد تأثراً بليغاً، لأنها مرت، أو تمر، الآن بمأساة كالتي تشاهدها تمثل أمامها على الشاشة.

بعد الفيلم أويت إلى غرفتي لأنني كنت تعباً قلقاً. ولما أنتصف الليل وهدأ ضجيج الدار، تناهى إلى سمعي نشيج عميق، قدّرت أنه يأتي من غرفة كادي التي يفصلني عنها جدار رقيق. فقممت من فوري وطرقت بابها، ففتحت لي، ونظرت إليّ بعينين دامعتين، وأخذتني من يدي، وأدخلتني غرفتها، وجلسنا معاً على حافة سريرها.

شعرتُ أنها أرّاحت لمجيئي، وقبل أن أسألها شيئاً، قالت لي:

- ما أجمل مجيئك إليّ في مثل هذه الساعة! أنا بحاجة إلى مَنْ أفضي إليها بالسرّ الذي يعذبني، عساك تجدني لي مخرجاً، أو تشجّعيني على ما أنوي القيام به.

وراحت تبكي بدموع غزيرة، وكنت أهدهدها وأحاول تهدئتها فما أفلح.

كان سكون الليل، والضوء الخافت في غرفة الطالبة كادي، ولونها الأسود القاتم، ونشيجها المرير، تضيء هذه كلّها علينا جواً كثيباً يقبض النفس، وينطبع في الذاكرة فما ينمحي أبداً..

وبعد أن هدأت كادي قليلاً، راحت تروي لي مأساتها:

* * *

ماتت أمي وأنا طفلةٌ صغيرة.

وكان أبي قاسي القلب حادّ الطبع، تزوّج بعد موت أمي بقليل، وأنصرف لزوجه الشابة. ولم يكن لي سوى أخ

واحد يكبرني بعدة سنوات، فكان يدلّلني، ويعنّي بي كثيرًا، فأجد عنده ما فاتني من حنان الأمّ، ورعاية الأب، ولمّا أتمّ دراسته الثانويّة أرسله أبي إلى فرنسا ليدرس الطبّ، فأستولى عليّ حزنٌ شديدٌ لفراقه، وشعرت بوحشة وأنا في بيتي وبين أهلي.

وما لبثت أن وجلتني منبوذة في بيت أبي..

وبعد سفر أخي بقليل، خطبني شيخٌ غنيٌّ له ثلاث زوجات، ولم يرزق ولدًا، وله من العمر سبعون عامًا، وأنا لم أ تجاوز السابعة عشر من عمري. كان الشيخ يمت بصلة القرابة إلى زوجة أبي، فرضيَ أبي أن يزوجني منه. ورفضتُ وتمنّعتُ، ولكنه لم يأبه لي أبدًا..

ويُجَدّد موعد القران، فأكتب إلى أخي أستنجد به. ويستنكر أخي الأمر ويستكبره، ويكتب إلى أبي كتابًا عنيفًا يُحذّره من الوقوع في مثل هذا الإثم. ولم يُجِدِ الكتاب نفعًا، بل زاد أبي عنادًا وتمسّكًا برأيه..

وأعاود الكتابة إلى أخي.. فما كان منه إلّا أن كتب إلى صديق له في بلدنا يثق به كثيرًا، وكان الصديق على أهبة

السفر إلى فرنسا ليتمّ دراسته فيها أيضًا. ورجاه أخي أن
يُهيّئني من بيت أبي ويهيّئ لي جواز سفر، ويصطحبني معه
إلى فرنسا.

ويقوم الصديق بما عهِدَ إليه. خير قيام. وكان هري قبل
موعد حفلة القران بيوم واحد.

ونركب الباخرة، ونقضي عليها أيامًا حلوة، لعلّها أجمل
أيام حياتي. كنت كالعصفور الذي ينطلق من القفص إلى
الفضاء الرحب. فكنت لا أكفّ عن الرقص والغناء
والضحك. وكان طبيعيًّا جدًا أن يدهمني الحب، بعد كلّ هذا
الكبت الذي عانيته طويلًا. ومَن أولى بحبي من هذا
الصديق، الذي أراه إلى جانبي لا يفارقني أبدًا، ينظر إليّ
بؤله، وقد تطوّع لإنقاذي، وراح يغمري بحنانه ورعايته. فكان
أن أندفعنا في الحب، وتعاهدنا على الزواج.

ونصل فرنسا، ويفرح أخي بمجيئي كثيرًا، وكان يدرس
في جامعة «مونبيلييه»، بينما يدرس صديقه في «باريس»،
ويقترح الصديق على أخي أن أدرس في باريس، وأن أسكن
دار الطالبات هذه. ويقبل أخي الاقتراح، ويصبح من السهل

علينا أن نجتمع، أنا وحببي، كلما حلا لنا ذلك، ونلهو كما
نشاء ويشاء لنا الهوى...

ومنذ شهرين تبين لي أنني حامل، ويتملكني الذعر،
وأذهب إليه مرتاعةً أخبره بالأمر.. فما كان منه إلا أن أخذني
بين ذراعيه، وراح يُقبلني، والفرح يغمر أساريه، ويقول لي
عائياً:

- ما كنت أحسب أنك تبكين إذا أثمر حبنا.. الأمر أيسر
بكثير مما تتوهمين. سأذهب أنا وأنت، في نهاية الأسبوع، إلى
أخيك في مونيبيليه، وأخطبك منه، ثم نعلن زواجنا، وأنا على
يقين أنه لن يرفض طلبي أبداً. وإذا رفض، وهذا ما أستبعده
كثيراً، فسنعترف له بكل شيء ونجعله تجاه أمر واقع..

قلت:

- ولكنني أخاف من أخي!

ويربّت كفتي، ويقول:

- أوتخافين، وأنا إلى جانبك؟

وتتابع كادي، والدموع تنهمر من عينيها:

- أرايتِ؟ إنه لم يغدر بي أبداً، كان شريفاً، ولكنَّ
الأقدار هي التي غدرت بي.. لقد مات حبيبي قبل نهاية
الأسبوع! قبل أن نذهب إلى أخي.. توقّف قلبه فجأة! وكان
موته بالسكتة القلبية كما أئد الطبيب.. مَنْ يُصدّق
أنَّ شاباً قوياً في عنفوان شبابه، يموت هكذا في طرفة عين،
دون أيّ سبب؟ وتكبر عليّ المصيبة، فينسيني موته
نفسي، والجنين الذي ينمو في أحشائي!.. ولكن أول
البارحة وردتني رسالة من أخي، يعترف لي فيها بأنّ أبي
كان قد قطع عنا المال منذ هربتُ إلى فرنسا، أنتقاماً منه
ومني.. وأنّ صديقه الراحل الغالي كان هو الذي يمدّنا
بالمال بما يرسله له أهله، وهم أغنياء جداً، وقد اتّفق مع
أخي أن يكتما عني هذا الأمر كي لا أهتمّ وأتألم. وأصبح
أخي الآن لا يستطيع أن يستمرّ في دراسته التي شارفت
على النهاية، فكتب إلى أبي يستعطفه، ويرضى أبي ويعفو
عنه شرط أن يُعيدني إليه، وهو يَعِدُ بأن لا يتعرّض لأمر
زواجي ما لم يوافق أخي عليه، فيجب عليّ إذاً أن أعود..
وكيف أستطيع العودة وأنا حامل؟..

قلت لها:

- ليس أمامك سوى أن تتخلصي من الجنين في أسرع ما يمكن.

قالت مذعورة:

- هذه جريمة كبرى لن أقدم عليها أبدًا.. كيف يجوز لي أن أقتل أبنة في أحشائي؟! ابن من أحبني، وضحي من أجلي، وثقي أن لا شيء يخفف عليّ حزني، ويحبب إليّ الحياة كما إذا أستطعت أن ألد هذا الجنين، وأكرس حياتي كلها للعناية به..

قلت:

- أعترفي لأخيك، ربما استطاع أن ينقذك مما أنت فيه.

قالت:

- ماذا تقولين؟ أجنونة أنت؟ أعوذ بالله! لا شك أنه يقتلني.. وما يخيفني القتل أبدًا، ولكنني أشفق على أخي، ويصعب عليّ أن أجزه إلى مثل هذا الإثم، وأن أسبب له ألمًا وحزنًا ربما لا يستطيع أن يتخلص منهما طول حياته، كما لا أريد أن أخيب ظنه في صديقه الذي كان يحبّه، ويثق

فيه، فيحسب أنه كان يدفع له ثمن شرف أخته. لا لا.. لن أفعل ذلك أبداً، معاذ الله..

وتفكر قليلاً، ثم تقول:

- لم يبقَ أمامي إلا حلٌّ واحد.. هو الحلّ الذي أنتهت إليه فتاة الفيلم..

وهولني ما أرى على وجهها من علائم التصميم والجدّ، ولم أعد أعرف كيف أتصرّف معها، وبماذا أُشير عليها!..

قلت لها:

- هذه هي الجريمة الكبرى، فيّاك أن تُقدّمي عليها، خيرٌ لك أن تعترفي لرئيسة الراهبات وهي، كما تعلمين، طيّبة رحيمة، ربما أستطاعت أنقاذك بما لم يخطر ببالنا أنا وأنت..

قالت:

- سألجأ إليها منذ الصباح..

ولبثت هادئة تفكر، ثم راحت توهمني بأنّ النعاس سيطر

عليها، فعرضتُ عليها أن ننام معاً في سريرها، فلم تقبل،
ومانتعتُ بشدةٍ خوفاً من إزعاجي.

وعدتُ إلى غرفتي محطمة النفس، أفكر بهذه المسكينة،
وماذا يمكنني أن أفعل من أجلها؟ ولا أدري كيف غلبني
النوم، فسهوت قليلاً قبيل الفجر... وإذا إحدى الطالبات
توقظني في الصباح الباكر، وتحمل إليّ الخبر المريع:

- أنتحرت كادي.. بأن ألقت بنفسها من الطابق
السادس إلى الأرض.

ويعمّ الحزن الدارَ بجمعها، كلٌ واحدٍ منا كانت تشعر أنها
هي وحدها قد فقدت كادي..

* * *

وإن أنسنَ لا أنسنَ أخاها يوم جاء الدار ليأخذ أشياء
أختها، وقد تركت له كلمتين فقط: «أخي الحبيب، لقد
فضلت الموت على العودة».

كان المسكين يبكي بلوعةٍ، ويقول لنا:
- أتعرفنَ أنني أنا الذي قتلْتُ صديقتك كادي؟ قتلْتُها،

لأنني أجبرتها على العودة إلى حيث لا تريد!... أنا والله
قتلتها!...

ويخطر ببالي أن أريح ضمير الرجل، الذي بدا لي أنه
يتعذب كثيرا، فأبوح إليه بما أعرف من سر أخته، وسبب
انتحارها..

ولكنني لم أجزؤ أبدا على مفاتحته..

و هل يجوز لي أن أفشي سرا أؤمنت عليه، وقد فضلت
صاحبته الموت على إفشائه!!؟

النصر الفالي

... فإذا بيده صغيرة شقراء،
معقود في نهايتها شريط أزرق
كالفراشة، يقطر من جذور الشعر
دمٌ قانٍ يجيول بالتراب.

النصر الخالد

صرخت أمّ رندة:

- أتركي الطابة يا بنتي، يكفيننا صوت المدافع والقنابل!

لم تردّ الصغيرة، ظلّت تضرب الطابة على أرض الشرفة
ثمّ تردّها بيدها، فيُسمع لها دبدبة رتيبة مزعجة.

زعقت الأمّ بعصبية:

- أتركي الطابة يا رندة، وإلا رميتها إلى الطريق. هاتي
المشط، وتعالى لأسرّح لك شعرك.

أذعنت الصغيرة لتهديد أمّها الذي لم تألفه منها قطّ. رمت
الطابة على أرض الشرفة، أسرعّت إلى غرفة النوم، عادت
بالمشط، نظرت إلى وجه أمّها المتجهم، ثمّ قالت:

- ماما، أنتِ زعلانة؟
- لا يا حبيبتي، لكن أعصابي تعبـة.
- ماذا تعني «أعصابي تعبـة»؟
- تعني أنني لا أستطيع أن أسمع صوت الطالبة، أو أي صوت آخر، أفهمت؟

هزّت رندة رأسها، مشيرةً إلى أنها فهمت قول أمها،
ولكن بدا في اتّساع عينيها أنها لم تفهم شيئاً.

ناولت أمها المشط، جلست أمامها على الديوان، أدارت
لها ظهرها. حلّت الأمّ الضفيرة، غرزت المشط في الشعر،
سحبته إلى الأسفل، تعثّر المشط قليلاً، صرخت الصغيرة:

- أخ!

ولوت عنقها.

رفعت الأمّ المشط، غرزته في مكان آخر، سحبته...
راحت تكرر غرزه وسحبه، حتّى أنساب الشعر أمامها شلّالاً
أشقر كأسلاك الذهب، طرئاً كخيوط الحرير.

نظرت الأمّ إليه بأعزاز كبير، وكأنها تناست همومها

لحظات، فراحت تعبث بالشعر الأشقر، تلملمه، تَقْرُده، هي التي ربّت لهذا الشلال الذهبيّ المتدفّق، وأعتنت به، حتّى بدا كشعر صبيّةٍ كبيرة لا كشعر طفلة صغيرة لم تتجاوز الخامسة من عمرها، ثمّ فَرَّقته إلى ثلاث خُصَل، وضعت بينها شريطةَ زرقاء، وراحت تجدلُ خُصَل الشعر مع الشريطة، ثمّ تركت أواخره محلولاً، وعقدت الشريطة، فبدت كفراشةٍ زرقاء كبيرة حطّت على ضفيرةٍ شقراء.

تلقّت الصغيرة نحو أمّها، فراحت الضفيرة تنوس على كتفيها بدلال.

قالت لأمّها بصوت ناعم:

- ماما، أنت تحبينني؟

وتتفرّس الأمّ بالوجه الصغير المكلّم، فيطفح قلبها حناناً، إنها أبنتها الوحيدة التي جاءت بعد عُقْمٍ طويل، وتطبع على الحَدِّ قبلةً حنونة، وتقول لها:

- أحبك أكثر إذا سمعتِ كلمتي، قومي الآن إلى غرفة جدّتك وأطلبي إليها أن تحكي لك حكاية الطير الأخضر الذي يمشي ويتبختر.

قالت الصغيرة بدلال:

- أحكيها أنتِ لي، يا ماما، أنا أحبُّ أن أسمعها منك أنت.

قالت الأم:

- أنا ذاهبة إلى السوق لأشتري لك «شوكولاتة».

قالت رنده:

- خذيني معك، أرجوك يا ماما، خذيني معك.

قالت الأم:

- لا أستطيع، كوني عاقلة وأسمعي كلمتي.

بكت الصغيرة، وراحت تكرر:

- خذيني معك، خذيني معك.

وهي تضرب الأرض بقدمها الصغيرة.

صاحت الجدّة:

- مالك، يا رنده؟ مالك يا حبيبتي، تعالي لأحكي لك حكاية حلوة.

أرتدت الأم معطفها على عجل، ودخلت غرفة حماتها،

التي كانت لا تزال تُسبِّح في سريرها، أنحنت عليها، وهمست
في أذنها؛

- عينك على رندة! أنا ذاهبة إلى المستشفى لأطمئن
على أخي، فقد جيء به البارحة من الجبهة جريحًا، وجراحه
خطرة.

قالت العجوز؛

- الله يشفيه، ويعينك، ويعين أمه، هؤلاء الشباب
الأبطال، الله يحميهم، لا تتأخري يا بنتي، بعد قليل سيعود
زوجك من عمله، وسينشغل باله عليك. نحن في حالة
حرب، وفي كل ساعة تأتينا من عندهم غارة، إن شاء الله
تغور الأرض فيهم.

ضحكت أم رندة، وقالت؛

- لا تخافي، يا امرأة عمي، الغارات التي يشنونها علينا
ما هي إلا حرب أعصاب، لن يستطيعوا أن يضربوا المدن
الآهلة بالسكان، ستقوم الدنيا عليهم وتقعده، هل الأمور سائبة
إلى هذا الحد؟..

هممت العجوز قائلة؛

- هؤلاء صهاينة، غدارون، يا بنتي، هل نسينا ما أصابنا منهم؟.

كانت رنّدة ما تزال تبكي وتضرب الأرض بقدميها، فلما رأت أمّها خارجة تشبّثت بمعطفها، وظلّت تصرخ:
- ماما! خذيني معك، أنا خائفة، خائفة..

خلّصت الأمّ معطفها من يد الصغيرة ودفعتها إلى غرفة جدّتها، وأغلقت باب الدار خلفها، وراحت تهرول على الدرج. كان صراخ الصغيرة ما يزال يرن في أذنيها، توقفت في منتصف الدرج، وقد راودتها فكرة في أن تعود وتأخذها معها، ولكنها تردّدت قليلاً، وقالت في نفسها: بعد قليل ستكفّ عن البكاء، وستداربها جدّتها، ما الفائدة من أخذها؟ ربما لن يسمحوا لها بدخول المستشفى.

تابعت سيرها.

* * *

كان شارع الجلاء هادئاً، إلّا من نسائم خريفية تداعب رؤوس أشجاره، وكان الناس يتحدّث بعضهم إلى بعض

بغبطة وفرح، رؤوس أكثرهم مرفوعةً نحو السماء، تبحث
فيها عن طائفة عدوة يطاردها صاروخٌ فيحيلها في لحظاتٍ إلى
جمرة حمراء لا تلبث أن تذوب في الفضاء... ما أحلى
اللعبة!.. لا سيّما عندما يهبط قائد الطائفة العدوّة بالمظلة،
أهل دمشق كلّهم في الشوارع يُطلّون من الشرفات
والشبابيك والأسطحة، يترقبون اللعبة المثيرة. لا أثر للخوف
أو للذعر، حتّى الخائفون أصبحوا شجعانًا هل الشجاعة
عدوى أيضًا؟ أم هي بؤادر النصر تفعل الأعاجيب،
القوضويّون أنقلبوا نظاميين! يا لهذا السحر، الذي أسمه
النصر، ما أروعها!..

فجأةً دوى في الجوّ صوتٌ فظيع، تسمرّ الناس في
أماكنهم، تلا الصوت أنفجار، تبعه آخر وآخر.

شعرت أمّ رنده أنّ قوّة هائلة تدفعها نحو مدخل إحدى
البنيات وتلصقها بالجدار، لا تدري كم ظلّت فاقدة وعيها، ثمّ
راحت تصحو شيئًا فشيئًا، وتنظر حولها فتتداخل الأشياء،
وتتشابك أمام ناظرها، جدارٌ من غبار رماديّ داكن أنتصب
أمامها، لم تعد ترى من خلاله إلّا أشباحًا تراكض، وترهف

سمعتها فتتلقف أذناها أصواتَ أَسْتَغَاثَةٍ، وصراخٍ ملهوف،
وأبواقِ سيارات الإسعاف من هنا وهناك.

ظَلَّتْ لحظاتٍ مذهولةً، ثم راحت تتحسس أعضائها،
رأسها، يديها، رجليها... أيمكن أن تكون سليمةً بعد هذا
كلِّه؟ جرَّبت أن تقف، فانتصبت قامتها بسهولة، إلَّا رجفة
كانت تهزّ جسدها كلِّه.

زَعَقَتْ:

- بنتي رنّدة، رنّدة!

ثم قفزت فوق الأنقاض، وقعت على الأرض، دخلت
شظايا الزجاج في كفِّها وركبتيها، وسال دمها، لم تشعر بالألم،
تمالكت نفسها ونهضت، ثم وقعت، وعادت فنهضت.

كان الناس، من حولها، يتراكضون من غير هدئٍ،
وسيارات الإسعاف تلملم القتلى والجرحى من الطرقات،
غبارٌ أسود يحجب بعض البنايات.

ركضت في اتجاه بيتها، لمحتّه من بعيد، يلقه غبارٌ أسود،
شعرت أنّ قلبها يهبط.

وصلت، وقفت أمامه تلهث، ثم أقتحمت الغبار، دون أن
تعي ما تفعل. سحبها أحد رجال الأمن من يدها، وصرخ
فيها؛

- أجمنونة، يا امرأة؟

قالت له؛

- لي هناك امرأة عجوز، وطفلة صغيرة.. دعني، أرجوك،
دعني.

أفلتت منه، وأقتحمت الغبار، قبض عليها وسحبها مرة
ثانية بعيداً عن الأنقاض، وهو يقول لها؛
- ممنوع دخول البنايات المقصوفة إلا لرجال الإطفاء،
والدفاع المدني.

أشفق عليها رجلٌ، فأخذها من رجل الأمن وراح يهدئ
من روعها، قائلاً؛

- صلي على النبي، يا أختي، أنتظري، عساه خير، كثيراً
ما يخرج بعض الناس من تحت الأنقاض سالمين..

لا تدري كيف أفرغَ عليها الصبر، كأنَّ كلام الرجل قد

فتح عليها كوة أمل، فوقفت إلى جانبه تحملق في الغبار،
الذي بدأ يَشِفُّ ويَشِفُّ، حتَّى أنقشع أخيراً عن كومة
أنقاض.

نذت منها صرخة مروعة، رفعت كفيها وخطبتهما على
وجهها، وهي تقول:

- لماذا لم أخذها معي؟ لماذا؟ لماذا؟..

عاد الرجل يهدئها، فكتمت صراخها، وراحت تعضُّ
أصابعها، شعرت أنها نشازٌ بين هذا المجتمع، وأنَّ نظرات
استنكارٍ تنهال عليها، الناس أصبحوا غيرهم بالأمس، لا أحد
يبكي، لا أحد يصرخ، الجميع يتغلبون على عواطفهم بقدرة
عجيبة، يواجهون مصائبهم بصمودٍ وشجاعة.

شقَّ الزحام رجلٌ مكهرب الوجه، زائغ النظرات، صاح
بصوتٍ جهوري:

- فداك يا شام! أهلي هنا تحت الأنقاض، ليسوا خيراً من
شبابنا الذين يواجهون الموت في الجبهة، النصر غالٍ يا أخوان،
النصر غالٍ...

قفز شابٌ من الدفاع المدني كأنه لمح شيئاً، دسَّ يده في
كومة تراب ثم أخرجها ونفضها... فإذا بيده ضفيرةً شقراء،
معقودٌ في نهايتها شريطٌ أزرق كالفراشة، يقطر من جذور
الشعر دمٌ قانٍ مجبولٌ بالتراب.

أندفعت أمٌ رندة نحو الفتى، وخطفت من يده الضفيرة،
قائلةً:

- هذه لي!

وضمتها إلى صدرها، وتكومت على الأرض، وهي تكتم
نשיجها.

* * *

لقد جفت الدموع من عيني الأم الثكلى، وراحت
شفتاها تتمتمان كما سمعت من الرجل المكهرب الوجه:
- فداك يا شام! النصر غال! النصر غال!...

الذكرى القاتلة

... تذكرت - وهي تجتاز الجسر
- أن أول موعد ضربه لها زوجها كان
في هذا المقيع نفسه...

الذكر والقائلة

كان لا بدّ لها من الذهاب إلى الموعد الذي ضربه لها في ذلك المقهى المنعزل، القائم على تخوم البلدة الكبيرة، التي كانا يسكنانها .

كانت رسالته إليها مقتضبةً لا تَنِمُّ عن شيء، لا عن غضب، ولا عن رضا، أشبه ما تكون بتلك الرسائل التي يتبادلها الغرباء لأمرٍ ما، داخلها شيء كثير من الارتباك والحيرة، وهي تُعيد قراءة الرسالة، ربما للمرة العاشرة... أتراها دليلاً على عدم مبالاته بها؟ أم عن حقه العميق، وكبريائه المجروحة؟...

تساءلت: لم دعاها إلى المقهى وكأنها امرأة غريبة عنه، ولم

يدعُها إلى البيت ليسويًا أمورهما بهدوءٍ فينفصلا عن بعضهما
بالحسنى، ويظلّا صديقين إكرامًا لأبنتيهما الصبيتين
اليافعتين؟ أترأه يعتقد أنّ البيت، الذي ضمّهما خمس
عشرة سنة، أصبح محرّمًا عليها، بعد أن هجرت ربّه وفرت مع
رجل آخر؟

تنهّدت بعمق، وودّدت من صميمها لو أوتيت من قوة
البلاغة، والقدرة على الإقناع، ما تستطيع بهما أن تصوّر
الأمر كما وقعت تمامًا... عندئذ تستطيع أن تبرئ
نفسها، بأن تقنعه أن الأمر كان فوق طاقتها، وأنها ليست
وحدها المؤاخذه، لقد كان له أيضًا يدٌ كبرى في المأساة
التي قوّضت بيتهما السعيد... هو الذي يظنّ نفسه بريئًا
لا ذنب له!

أترأه يذكر يوم جاءها ذات مساء، يقول لها أنه تعاقد مع
شركة كبيرة ليعمل فيها مهندسًا في بلدٍ ناء، وسيصطحبها
معه، بعد أن يُلحقًا أبنتيهما الصبيتين في مدرسةٍ داخلية،
وسيغلّقان بيتهما إلى أن يعودا إليه بعد سنواتٍ قلائل وقد
أصابا من الثروة والغنى حظًا كبيرًا.

فوجئت يومئذ بقراره هذا، ثارت عليه، أنبته، كيف يُبرم مثل هذا الأمر الخطير دون أن يستشيرها! أليست شريكة حياته؟.. إنها قانعةٌ بعيشها، لا تجد جمع الثروات الطائلة سبيلاً إلى السعادة كما يجد هو. كما أنها لا تصبح على فراق أبنتيهما، إنها تجد لذّة كبيرة في رعايتهما ومتعة لا تعادلها متعة في رفقتهما، كما يشقّ عليها هجر بيتها الأثير عليها وبلدها الذي تحبّ... لكنّه لم يأبه لحججها، وأصرّ على رأيه.

لم تكن تدري أن لا قيمة لرأبها عنده، وأنها تعيش تابعةً له، هي التي كانت تعتزّ بذكائها وقوة شخصيتها. كتمت ذلك كله في نفسها وسافرت معه إلى حيث يريد.

كان البلد الذي جاء إليه، موحشاً، بعيداً عن المدينة التي ألفتها. سكنت مع زوجها في فندق أقيم على ساحل البحر لأرباب الأعمال الغرياء، قد توقّرت فيه أسباب الراحة. كان زوجها يذهب إلى عمله في منطقة نائية منذ الصباح الباكر. وكانت، في أثناء غيابه، تمارس السباحة التي تهواها، ولم تجد بين نزلاء الفندق من تنسجم معه.

كانت تمضي وقتها في السباحة والقراءة، وكتابة الرسائل إلى أبنيتها وأصدقائها. ولم تمضِ عليها شهورٌ قلائل، وهي تعيش هذه الحياة الرخيّة بين السباحة والاسترخاء على الرمال تحت أشعة الشمس، حتّى شعرت أن جسمها الممتلئ بدأ ينحل كما كانت تتمنّى وتشتهي وهي في بلدها. وبعد فترة قصيرة بدأ قوامها مشيقاً رشيّقاً. صارت لا تملّ من النظر إلى المرأة، فهي لم تعرف نفسها - حتّى في عزّ صباها - أجمل منها الآن. وكم كانت تعتزّ وتطرب عندما يناديها بعض الذين لا يعرفونها بـ «يا آنسة»!

وكم كان يؤسفها أن ليس هنالك مَنْ يهتمّ بهذا الجمال المتفجّر، من يرمقه بنظرة إعجاب، من يطّريه بكلمة حلوة! كانت تشعر أنها كالثمرة الناضجة، إن لم تُقَطَّف في أوانها وقعت على الأرض وأصابها التلف. كان زوجها يعود من عمله منهكاً، ما يكاد يأكل حتّى يأوي إلى سريره. وإذا تحدّث إليها تحدّث عن مشاريعه المقبلة، وعن عمله المأخوذ به إلى حدّ الهوس.

* * *

وتمزّ الأيام رتيبةً متشابهة، حتّى بدأ الضجر يفعل فيها
أفاعيله، فتكاد أحيانًا تتفجر ضيقًا وسأمًا...
إلى أن رآته...

رأته يخطر على الشاطئ، بقوامه الفارع، وبنياته المتين،
ورأسه الشامخ ذي الشعر الأسود الكثيف.

سألت عنه، فقليل لها إنه قائد الطائرة التي تحطّ هنا مرةً
كلّ أسبوع، ولا تقلع إلّا في اليوم التالي.

وكان لا بدّ له أن يتعرّف عليها، فما أقلّ الناس على
ذلك الشاطئ المهجور، وما يكاد يتحدّث إليها حديثه الجذاب
حتّى شرنقتها نظراته المشعة من عينيه، اللتين تكثّفت فيهما
زرقة البحر الداكنة، كما تُشرّق العنكبوتُ فريستها.

أحسّت إحساسًا غامضًا أنه لو أشار إليها بطرف بنانه
إشارةً خاطفة لتبعته إلى آخر الدنيا، ولما فكّرت بزوجها
وأبنتيهما، ولما أهتمت بما يقوله الناس عنها، هي التي عرفت
في مجتمعهما بأنها امرأةٌ رصينة متحفظة. أرادت مخلصاً أن
تهرب منه قبل أن يُشير إليها، فقد أدركت، من نظراته التي

كانت تتفحصها بإمعانٍ وإعجاب، أن لا بدَّ له أن يشير إليها
يوماً ما، إشارته تلك التي ستقوِّض حياتها...

لجأت إلى زوجها، ترجوه، وتلجَّ عليه أن يسمح لها
بالعودة إلى بلدها، فقد أشتاقت إلى أبنتيهما ولم تعد تصبر
على فراقهما... وفي الواقع، كانت تريد أن تحتمي بهما من
هذا الذي جاء يخطفها منهما.

لكنَّ الزوج أستنكر طلبها، وندَّد بها قائلاً:

- هل جننت؟... لم يمضِ على وجودنا هنا إلا بضعة
شهوراً أو ثلثين أنني جئتُ أعمل هنا ليلَ نهار، لأدفع
تكاليف السفر الباهظة كلما ألحَّ عليك الحنين إلى بلدك؟....
توسلت إليه... بكيت، عساها تثير حنانه، لم يأبه لها، أصرَّ
على عناده، كشأنه معها دائماً.

حتَّى إذا يشت منه أستسلمت إلى قدرها، فكان
ما توقَّعته...

و ذات يوم، عاد الزوج من عمله فلم يجدها...

* * *

مضى شهران... عاشت فيهما الحياة ملء إلهابها، في ذروة
من السعادة، وذروة من الشقاء. هي سعيدة غاية السعادة
عندما تكون إلى جانب الرجل الذي أحبت كما لم تعرف
نعماء الحب أبدًا... شقية غاية الشقاء عندما تخلو إلى نفسها
وتواجه ضميرها...

أعادها الرجل الذي أحبت إلى بلدها، وسكننا معًا في
حي بعيدٍ عن بيتها، لكنّها لم تجرؤ على الاتصال بأبنتها على
الرغم من شوقها العارم إليهما.

فلما تلقت رسالة زوجها المقتضبة، صممت على موافقته
إلى الموعد الذي ضربه لها في المقهى مهما سبّب لها لقاءه من
مشقة وخرج، عساها تستطيع أن تتفق معه على الانفصال
بالتراضي، فتعود إلى رؤية أبنتها الغاليتين عليها.

وكان المقهى الذي قصده قائمًا على ضفة نهر غزير،
تذكرت - وهي تجتاز الجسر - أن أول موعدٍ ضربه لها زوجها
كان في هذا المقهى نفسه، ولكنها نسيت اسمه، لم تذكره
إلا وهي تجتاز الجسر.

وقفت لحظة وهي تستعيد الذكرى: كيف خرجا من

المقهى قبل خمس عشرة سنة، وسارا على الجسر وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، حبيين صغيرين وكأنهما يطيران من فرط سعادتهما. بعد أن اجتازا الجسر سارا على حافة النهر، وتذكر كيف أوقفها أمام فجوة من النهر كأنها بحيرة صغيرة ثم ينعطف بعدها النهر عطفة كبيرة لها منظر رائع. قال لها، أتردين لو رفضتِ حبي ما كنتُ فاعلاً بك؟

قالت: وما عساك تستطيع أن تفعل؟

قال: كنت مصمماً أن أقودك إلى هذا الدوار - وأشار إلى العطفة التي لا ينجو منها أمهر السباحين - ثم أقذف بك وبنفسي إلى الأعماق، حيث ستكونين لي إلى الأبد.

فضحكت يومئذ معتزةً بحبه لها وقالت بدلال: أوتفعلها يا مجنون؟؟؟ سبحان من نجاني منك إذا...

وتذكر كيف شدَّ جسدها اللدن إليه، وطبع على فمها أول قبلة.

تسمرت قدماها على الجسر، وهي تستعيد الذكرى، فلم تعد تستطيع أن تخطو عليه خطوة واحدة.

ذات يوم سارت على هذا الجسر، وهي تحسب نفسها
أسعد إنسانة على الأرض... وها هي ذي الآن تقف عليه
مسمّرة، وهي موقنة أنها أتعس مخلوقة على الأرض. والرجل
الذي تحب... إلى متى تستمرّ علاقتها به؟

ذات مرّة طلبت منه أن يتزوّجا بعد طلاقهما، فسخر
منها وقال: أوهربت من زوجتي، وهربت أنت من زوجك،
لنعيد الخلطة نفسها؟

شعرت بعدئذٍ أنّ شيئاً من الفتور راح يدبّ بينهما، لأوّل
مرة، منذ عرفته، وتنقّش أمامها غيمة عن الواقع فتواجهه
دون تمويه أو خداع.

رأت حياتها قد أصبحت عذاباً في عذاب، قرفت من
نفسها، أعترتها دوخة مفاجئة، أشتدّ وجيف قلبها، وأمتلأت
عينها بالدموع، فرأت الأشياء حولها من خلال غشاوة تهمز
وتهمز حتّى تختلط ببعضها...

وقعت في حيرة: أتذهب إلى المقهى؟ أم تعود من حيث
أتت؟

مضى على الموعد بضع دقائق، وهو لا شك ينتظرها
الآن، ربما في نفس المكان حيث كانا يجلسان، لم تعد لديها
القدرة على مواجهته، على النظر إلى عينيهِ العاتبتين.

أدارت ظهرها إلى باب المقهى، وبصعوبة بالغة راحت
تقتلع خطواتها عن الأرض، كأنها قد شاخت مرة واحدة.
قطعت الجسر، أتعطفت إلى اليمين، سارت مترنحة
على حافة النهر، وقفت أمام الفجوة.
لم تفكر طويلاً...

بهذوء متناه، وبلا تردد ألقت بنفسها في الدوار، الذي
لا ينجو منه أمهر السباحين...
وفي لحظة خاطفة... تم كل شيء...

إنها أختي

إنها خطيئة أهلها بمن فيهم
أنا.. سأظل أبكيها دائماً أبداً، مهما
كان شأنها معي.. إنها أختي..!

إنها أختك

خرجت إلى الشرفة، وراحت تراقب بهلع سيّارة
المستشفى البيضاء الرابضة أمام بيتها، وقد خُيِّلَ إليها أنها
نعشٌ بغيضٌ يثير القشعريرة في البدن.

كانت ترقأ دموعها الغزيرة بصمت، وكان الحزن يكسو
ملاحها الوديعة فيزيدها شحوبًا. وتستعيد بذاكرتها ما قاله لها
الطبيب قبل قليل، كأنها تريد أن تبرئ نفسها أمام ضميرها
من ذنبٍ يخيِّل إليها أنها أقترفته بحق أختها.

- لا يجوز قطعًا أن يعيش أيّ إنسان مع مجنونةٍ في
بيتٍ واحد مدّى حياته. لقد أصبح الأمل ضعيفًا جدًّا في
شفاء أختك!.. ولا أدري لم يثير مرآك، أنتِ بالذات،

جنونها، فيُسبب لها اضطرابًا مزعجًا، في مثل هذا الحال
يصبح المستشفى خيرًا من البيت، هذه مشيئة الله، وأنا
ناصح لك.

وتقول له باكية:

- أرجوك يا دكتور أن ترأف بها، أن تطوّل بالك عليها، إنها
ترفض الخروج من غرفتها، يا إلهي كيف كيف ستخرجونها
غصبا عنها!..

ويقول لها:

- أدخلي غرفتك وأطمئني، سأندبّر الأمر أنا وزوجك.
وتمتثل لأمر الطبيب حين تجد نفسها عاجزة عن أيّ
تدبير، ولكنّها لا تستطيع القعود أبدًا. كان دمها يغلي
ويفور.

وتخرج إلى الشرفة، تريد أن ترى أختها الحبيبة وهي
تبرح البيت إلى غير رجعة. وتسمع صرير الباب وهو يُفتح،
فيخفق قلبها، وتلمح جسد أختها الواهي النحيل بين
زوجها والطبيب، يحاول التملّص، وهما يدفعانها، بشيء من
العنف، إلى سيارّة المستشفى، وكان شعرها منفوشًا،

ووجهها مكهرّبًا، وعيناها تائهتين شاردتين، وشفتاها
مزمومتين، كأنها تَصُرُّ بأسنانها.

ولم تستطع الأخت الهالعة أن تكبت نفسها، فصرخت
بصوتٍ مخنوق:

- الآن ماتت سامية! ماتت أختي! ما الفرق بين الموت
والعيش في مستشفى مجانيين مدى العمر؟

وعادت إلى غرفتها، وتهاكت على سريرها وهي تجهش
بالبكاء.

* * *

بعد ساعاتٍ قليلة عاد زوجها، وجلس إلى جانبها، وراح
يطمئنئها ويواسيها، فيقول لها:

- لقد تمَّ كلُّ شيءٍ بيسرٍ أكثر مما كنّا ننتظر.. ويبدو أنَّ
أختك قد أرتاحت في المستشفى أكثر من بيتنا هذا.

فلم تردَّ عليه، وبدت له وكأنها لم تستوعب قوله.

فقال لها حائقًا وبلهجة عاتبة:

- أما كفانا ما عانينا من جنون أختك؟ أما أنت، لو
أُبقيت على حالتك هذه للحقبِ بها عن قريب!..
وتكفَّ عن البكاء، وتصمت قليلاً تستعيد هدوءها، ثم
تقول:

- لا أنكر أبداً أنّ وجود أختي بيننا قد سبّب لك إزعاجاً
قد لا يحتمله أقرب الأقرباء. وقد احتملته أنت، الصهر
الغريب، سنتين كاملتين، فانا أشكرك على هذه التضحية
التي بذلتها من أجلي. ولكن لا بدّ الآن أن أعترف لك،
عساي أهوّن عليك الأمر، أنّك كنت السبب في جنون أختي،
الذي أودى بها وهي في عزّ شبابها!

ويحملك بها بعينين دهشتين، ثم يصرخ قائلاً:

- أنا؟!.. ماذا تقولين؟!.. أجننتِ أنتِ أيضاً؟

وتردّ عليه متحدّيةً:

- نعم، أنت!.. ولا بأس في أن يُكفّر الإنسان، عن ذنب
أقترفه، بشيءٍ من التضحية.

قال متعجباً متهكماً:

- ما أغباني!.. وكيف لم أكتشف ذلك حتّى تكزمتِ أنتِ
وصرّحتِ به؟ أرجو أن تشرحي لي الأمر شرحًا وافيًا، فلم
يخطر لي أبدًا أنني سأُتهم بما أُتهمتُ به الآن.

قالت:

- يعود ذلك إلّى يوم خطبتنا.

قال:

- إلّى أمدٍ بعيدٍ إذا! إلّى عشر سنين تقريبا، وأنت
تكتمين عنيّ هذا الأمر الخطير؟ ما أدهاك!

قالت:

- ما كنت أحسب أنّ الأمر سيتطوّر إلّى هذا الحدّ من
الخطورة. وعلى كلّ حال، لم يكن بيديّ حيلة لأتلافى
المأساة. أنت تعرف أنّ سامية تصغرنى بستتين، وكانت
كما تعلم رائعة الجمال، ما كادت تبلغ الخامسة عشرة من
عمرها حتّى بدأ الخاطبون يتوافدون على دارنا من أجلها.
وأدركت أسرتنا، وأعني أبي وأمي وأنا أيضًا، أنّ لدينا كنزًا
ثمينًا يجب ألاّ نفرط به إلّا بعد رؤية وتفكير. وأحشر نفسي
مع أبي وأمي، أو بالأحرى كانا يحشرانني بينهما، لأنهما

كانا ينظران إليّ وكأنّني أكبر من عمري، بينما كانت أختي على العكس مني تمامًا، مريحةً لعبوبًا، تبدو دائمًا صغيرةً في حاجة إلى رعايةٍ ودلال. وكنت أحذو حذو والديّ، فأرعاها أنا أيضًا، وكان شعوري نحوها كشعور أمّ نحو أبنيتها لا كشعور أختٍ نحو أختها الصغرى. ولكن على مرّ الأيام طغت شخصيتها عليّ حتّى أصبحت بالنسبة إليها مجرد إنسانةٍ خُلِقَتْ لتُعنى بتدبير البيت وتوفير الراحة لسكّانه، وإني الآن لأعجب من نفسي أشدّ العجب كيف تقبّلتُ هذا الواقع بكثيرٍ من الرضى والقناعة. فما شعرتُ يومًا نحوها بشيءٍ من الغيرة أو الحسد، بل كنتُ فخورًا بأختي، أرى من الطبيعي أن تتزوَّج قبلي، هي التي خصّها الله بجمالٍ فريد، فإذا تزوّجتُ ربما وُجد من يهتم بي، ويخطبني، لأنّ وجودها قربي يصرف اهتمام الناس عني، وأيقنت أمّي أنّ جمال أبنيتها الصغرى لن تسطع شهرته، ويَبْعُدَ صيته، إلّا إذا برزت أختي في المجتمع الراقي، فأرسلتها إلى أرقى المدارس، وكستها أفخر الثياب، وراحت تتصيّد الفرص لتصطحبها إلى الحفلات، وكان هذا التدبير يتطلب مالاً وافراً لا تفي به مواردنا الضئيلة،

فلجأت أُمِّي إلى التقتير ما وسعها التقتير، فكان من جزاء ذلك أن أَسْتَغْنِيَا عن الخادم، وأنْقَطَعَتْ أنا عن المدرسة لأساعد أُمِّي في خدمة البيت. ولكنَّ أُمِّي تخرج كلَّ يوم، مع أختي، لعقد الصداقات وردَّ الزيارات، أو أرتياد الأسواق والحفلات، أما أنا فأبقى في البيت وأدبِّره وحدي. وكان لا بدَّ أن يؤثر نمط هذه الحياة في كليتنا، فيجعل من أختي فتاةً متعجرفةً، مغرورةً، طموحًا، ترى كأنه واجبٌ علينا جميعًا أن نخدمها وننفِّذ ما رَأيها مهما كانت صعبةً التنفيذ، ويجعل مِنِّي فتاةً مستَكِينَةً، قنوعًا، ضعيفة الشخصية، لا تتبَرَّم، ولا تثور أبدًا على واقعها المرَّ. وتظهر أنت على مسرح حياتنا، حين تشتري العمارة الضخمة المتاخمة لبيتنا، وتسكن منها الطابق المشرف على بيتنا المتواضع، ونسمع الكثير عن ثروتك الطائلة، ومكانتك المرموقة، وبيهرنا شبابك ووسامتك ونعرف أنك أعزب، ووحيد أمك، فنُعْجَب بكلِّ مزاياك، نُمنِّي النفس بأن تصبح يومًا صهرًا لنا نعتزُّ بك، فليس أنسب من فتاتنا الجميلة زوجةً لك! أما أنا فما كانت لتطولك أحلامي، فما جرَّبْتُ أن أفكر فيك ولو بيني وبين نفسي.

قال:

- بحق لي أن أحتج!

فأبتسمت، وتابعت حديثها قائلة:

- وذهبت أُمِّي وأختي إلى زيارة أُمِّك، وتعتقدان معها صداقةً كما هي العادة مع الجيران الجُدُد، وسرعان ما أصبح أصدقاء وتبادل الزيارات من حينٍ لآخر، ونحاول دائماً أن نُظهر فتاتنا بأحسن مظهر كي تفوز بإعجابك دون غيرها من الفتيات الحائِثات حولك، وتصبح أنتَ مدار حياتنا دائماً. وتمضي سنةً كاملة، دون أن نلمس أيَّ محاولة منك للزواج، وكانت أُمِّي تُنَوِّه لأُمِّك بذلك كلّه فلا تفوز منها بطائل. أما أنا فكنت ألاحظ أنك تُراقب بيتنا أحياناً، ولا سيّما عندما أكون وحدي أقوم بخدمة البيت، أو عندما أنتهي من عملي وأجلس على الشرفة أقرأ في كتاب، أو أنسج شيئاً من الصوف، ورحت أتساءل فيما بيني وبين نفسي: ما معنى مراقبته لي عندما أكون وحدي؟ ترى هل أثير أهتمامه؟ هل يُعجّب بي أنا دون أختي؟ وما ألبث أن أطرده هذه الفكرة من رأسي،

وأتهم نفسي بالسخف، وأقول: ما هذا الذي أراه إلا مجرد صدفة عابرة، مَنْ ينظر إليّ ويَدْعُ أختي؟

ويضحك زوجها وهو يضغط يدها بحنان، ويقول:

- ألهذا الحد أفقدتك أختك الثقة بنفسك؟ إنك تثيرين شفقتي.. هذه لا شك جريمة والديك. إنني ما زلت أذكر كيف ظللت أراقبكما، أنت وأختك، سنة كاملة، ثم تبين لي أنك أنت الزوجة الصالحة التي توافق طبعي، وهفوا إليها قلبي، حتّى لما فاتحت أُمّي بما عزمْتُ عليه أقرتني على رأيي، وأثنت عليك كثيرًا.

قالت له:

- لن أنسى لكما هذا الصنيع. منذ بعثت أُمك لتخطبني أعدت إلى نفسي الثقة التي كنتُ فقدتها منذ أمدٍ بعيد. وكانت مفاجأة أذهلت أسرتنا، ثم صحونا على فرحة عمّتنا جميعًا، ما عدا أختي، فقد بدا عليها الامتعاض، وكأنها رأت في اختيارك لي من دونها صدمةً جرحت كبرياءها، وراحت أُمّي تداربها، وتؤكد لها أن لا بدّ أن يخطبها من هو خيرٌ منك لأنّها أجمل منّي، ولكنّها لم تقنع أبدًا، وبدأت تتعقد نفسها ويسوء

خلقها، وعانينا الكثير من غَيرتها وتمرُّدها لا سيَّما أثناء إعداد الجهاز. والغريب في أمري أنني كنت أشعر وكأنني مذنبٌ في حقِّها، أو كأنني سلبتُها حقًّا من حقوقها، فرحتُ أمعن في مداراتها لأكفر عن ذنبي، وراحت هي تُمعن في إيهائي. ولاحظ والدانا ذلك، فراحا يؤتبانها على سوء تصرُّفها نحوِي، ويشعران بفداحة غلطتهما حين أسرفا في تدليلها حتَّى أفسداها، ولكن ما الفائدة وقد جاء هذا الشعور بعد فوات الأوان؟ ولما تمَّ عرسنا، وبقيت وحدها مع أمي وأبي، راحت تفتن في إزعاجهما، وكانا يجاران في إرضائها. وكانت كلَّما خطبها خاطب قاسته إليك، فإذا رآته دونك ردَّته عنها مهما كانت مزاياه طيِّبة. ولم ينجح أحدٌ في إقناعها بالزواج لمن هو دونك، ومن سوء حظِّها لم يخطبها من هو خيرٌ منك.

قال:

- الآن وَضَحَ سبب جفائها لي.. كنت أشعر أنها تكرهني، ولا أستطيع تعليل ذلك.

قالت:

- بل على العكس، كانت تحبُّك كثيرًا، وتُعجِّب بك،

ولكن هذا الحب والإعجاب أنقلبا إلى مقتٍ وكره عندما فضّلتني عليها. وبعد زواجنا ببضع سنوات مات أبي، وبعد قليل لحقت به أُمِّي، وفي يقيني أنها ماتت كمداً على أبنيتها المفضّلة، حين رأت جسمها ينحل، وجمالها يذوي قبل أوانه.. أما أنا، فقد ركبني همٌّ كبيرٌ من أجل أختي، كان قلبي يتفطر عليها أسمى كلّما رأيته بالبسة الحداد السوداء، وحيدة في البيت، تذوب يوماً فيوماً، وكأنها قد كبرت عن عمرها سنوات عديدة! كم كنت أحبُّ أن أفتح لها قلبي، وأن أكون لها، كما كنت دائماً، ملاذاً وملجأً، وأن أسكنها في بيتي فلا تقاسي مرارة الوحدة.. كان لي أملٌ في أن يعود جمالها وتألقها فيما إذا صَفَتْ نفسها، وهدأت أعصابها الثائرة دائماً، وربما تجد عندئذٍ الزوج الذي يُرضي غرورها، فما زالت في عزِّ شبابها.. أما هي فكانت تشتطُّ في مناكدتي، وتعمل دائماً عكس نصائحي، وكانني غريمةً لها، وتظلُّ على عنادها هذا، حتّى شعرنا ذات يوم أن عقلها بدأ يختلّ، وعزّونا ذلك إلى فشلها في الحياة، إلى انهيار أحلامها، ثم إلى أنطوائها على نفسها دون أن تخرج من البيت كما تَقضي بذلك تقاليد الحزن في بلادنا.. وأرتأيت أنت أن تأتي إلى بيتنا عساها تجد بعض السلوى، ولكنّها عارضت

ومانعت كثيراً كما هي عاداتها، ثم أذعنْتُ أخيراً تحت تأثير
نُصح الأهل والأصدقاء الذين وجدوا في وجودها بيننا حلاً
مناسباً لمشكلتها. وكانت غلطةٌ كبرى تلك التي أرتكبتها دون
أن نشعر إلا بعد أن استفحل الأمر، وراحت حالها تسير من
سَيِّئٍ إلى أسوأ.. كأنَّ مرآنا معاً، أنا وأنت، يحزُّك شجونها
ويثير غيبتها المكبوتة. فكانت أحياناً تنزوي في غرفتها، لا تخرج
منها أبداً، أو تُضرب عن الكلام، فلا تنفجر شفتاها عن كلمةٍ
واحدة، وأنتهى بها الأمر، كما تعلم، إلى جنونٍ عنيف، وظللنا
نأمل أن تشفى، وأتفقنا أن نكتم خبر جنونها عن كلِّ الناس،
لكي لا يصبح وصمةٌ عليها يحول دون زواجها فيما إذا شفيت
منه تماماً.. وأتقطعتُ أنا إلى مداراتها وتمريضها بكلِّ
ما عندي من عطفٍ وحنانٍ وتفانٍ. وتبيَّن لي أنها كانت، على
الرغم من جنونها، تكبت نفسها أمامك، فإذا خرجت من
البيت أتقلب كبثها إلى ثورةٍ عنيفة، فكانت أحياناً تهجم عليّ
وتضربني بكلِّ ما لديها من قوَّة... أتصدِّق إذا قلت لك إنني
كنت أقف أمامها ساكنةً أتلقُ ضرباتها بصبر عجيب، وأنا أقول
في نفسي: لعلها إذا ضربتني تشفى غليلها مني، فتهدأ ثورتها
قليلاً وترتاح أعصابها؟ فإذا فرغت من ضربي كنت أنصرف من

أمامها محطمة الجسم، كسيرة القلب، حيرى، لا أدري كيف
أتدبر أمري معها! وكنت أنت تشاركني همي.. إلى أن قطع
الأطباء كل أمل في شفائها، وأنتهى بها الأمر إلى مستشفى
المجانين حتى يوافيها أجلها...

ويختنق صوتها بالبكاء، وهي تقول:
- أنا سبب شقائها! أنا أحبها وأحنو عليها، ولا أدري لم
جعلني الله سبحانه وتعالى سبب شقائها!..

ويحيطها زوجها بذراعيه، ويقول لها بحنان:
- ما أطيب قلبك، يا حبيبتي! أتبكين؟ أتبكين على تلك
التي جئت حسداً منك؟؟

وتجيبه، ودموعها تنهمر:
- ليست خطيئتها وحدها، إنها خطيئة أهلها بمن فيهم
أنا!.. سأظل أبكيها دائماً أبداً، مهما كان شأنها معي.. إنها
أختي!..

فهرسة صحفوة

- ١ - الحزن الحمير:
نُشرت في مجلة «هنا دمشق»، العدد ٢١٢، أول أيار ١٩٦٢.
- ٢ - كاهدي:
مجلة «العربي»، الكويت، العدد ٤٥، أغسطس ١٩٦٢.
- ٣ - طفلها الممثل:
مجلة «الرائد العربي»، الكويت، يناير ١٩٦٤.
- ٤ - إنها أختي:
مجلة «الموظف»، الكويت، العدد ١٣، مارس ١٩٦٤.
- ٥ - الصكري القاتلة:
مجلة «هنا لندن»، العدد ٣٠٧، أيار ١٩٧٤.
- ٦ - اللص الفالي:
مجلة «المعلم العربي»، وزارة التربية - دمشق، تشرين الأول ١٩٧٦.
- ٧ - ما وراء الأشياء الجميلة:
مجلة «الموقف الأدبي»، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٩٤، شباط ١٩٧٩.

الفهرس

٧	ما وراء الأشياء الجميلة
٢٥	الحزن الحميم
٣٧	طفلها المدلل
٤٩	كادي
٦٥	النصر العالي
٧٩	الذكرى القاتلة
٩١	إنها أختي

أعمال الأدبية
إلفة عمر باشا الإطليحي

أولاً: القصص والروايات

١. قصص شامية:
الطبعة ١، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٥٤
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٢
٢. وطناً يا دمشق، قصص:
ط ١، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٣
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٢
٣. ويضحك الشيطان، وقصص أخرى:
ط ١، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٠
ط [٢]، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١

٤. مصحّح الكرم، قصص:
ط ١، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٦
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١
٥. حكاية جكّج، رواية:
ط ١، دمشق، ١٩٩٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١
٦. كهشلق يا بسملة الحزن، رواية:
ط ١، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٠
ط ٣، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٥
٧. ما وراء الأشياء الجميلة، قصص:
ط ١، دمشق، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦
- * تُرجمت رواية «حكاية جكّج» إلى اللغة الروسية من قبل فصح بدرخان.
وتُرجمت رواية «دمشق يا بسملة الحزن» إلى الإنكليزية من قبل «بيتر كلارك»
مدير المركز الثقافي الإيطالي بدمشق، وتُعاد طباعتها الآن في الولايات المتحدة
الأمريكية في طبعتين شعبيتين وفاخرة.
وكانت قد سبقَت ترجمةٌ عديدةٌ من قصص الأستاذة إلفة إلى سبع عشرة لغةً
شرقيةً وغربيةً.

ثانيًا: مقالات ومحاضرات

٨. المنوليا في كمشق، وأحاديث أخرى:
ط ١، دمشق، ١٩٦٤
ط ٢، دمشق، ١٩٩١
٩. نظرة في أدبنا الشعبي، دراسات:
ط ١، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٤
ط ٢، دمشق، دار الشادي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢
١٠. نفحات كمشقية، ومحاضرات أخرى:
ط ١، دمشق، دار سامي الدروبي للنشر، ١٩٩٠
١١. قطاع الأحبة، رثاءات:
ط ١، دمشق، ١٩٩٢
١٢. معاني وتقاليد الحارات الكمشقية القديمة،
محاضرات ومقالات:
ط ١، دمشق، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦

ما وراء الأشياء الجميلة وقصص أخرى

/ ألفة الإدليبي . ط ١ . -

دمشق ، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ . -
١١٢ ص ، ٢٠ سم .

١ - ٨١٣,٠١ إ د ل م ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦١ إ د ل م

٣ - العنوان ٤ - الإدليبي

مكتبة الأسد الوطنية

الإيداع القانوني : ١٠٩ / ١ - ١٩٩٦

إشبيلية : تنفيذ ١١ (ط ١) - ١٠٠٠ / ٢ - ١٩٩٦

صناعة الكتاب
بدمشق

التحضير الطباعي والطباعة ، دار الشام :

٢٢٢ ٧ ٩٩٢ ☎

التجليد ، مؤسسة السفراء :

٣٣١ ٦ ٢٠٥ ☎

تم إخراج هذا الكتاب في دار إشبيلية بدمشق على برنامج
الهرمي للنشر

هذه الكتاب

وأجمل ما في قصص اللفة الإدليبي، عفويتها
فيما ترويه لك من الحوادث، حتى لتخالها
تُحدّثك حديثاً شخصياً، وأنت - في إصغائك
إليها مُحَدَّثَةٌ - تخالها تحكي لك قصّة مما خطّه
يراعها... وما ذلك إلّا لصدورها في أدبها عن
طبع أصيل وبديهة صافية.



وانك لترى أديبتنا الكبيرة - التي تُرجمت
بعض قصصها إلى سبع عشرة لغة - معنيّة بالمرأة بطلة لكل قصّة من قصصها،
تُعالج - بوعي غير مشوبٍ بالتحيز - ما تُعانيه من أشواق الحياة: أشواق الفتاة
إلى الزواج، وأشواق الزوجة إلى الإنجاب، وأشواق المرأة المهملّة إلى الحب،
وربما رَصَدَت حالة العشيقّة التي ضيّعت الحاضر والمستقبل جميعاً... فإنّ تراءى
لها أن تُجاوز ذلك إلى عوالم أخرى، فإنها تُزاوج ما بين عالمين: فالقصّة الوطنيّة،
مثلاً، مرصودةٌ عندها من خلال مشاعر المرأة: جزع الأمّ لقصف العدو عمارة
تضمّ طفلتها الوحيدة، وحزن فتاةٍ سوريّةٍ لآسْتَشْهاد شابٍّ جزائريٍّ - آسْتَهْواها -
يُناضل في حرب التحرير.

ومع أنّ قصص هذه المجموعة هي ممّا نُشرت في المجلّات العربيّة خلال
عقدي الستينيات والسبعينيات، فإنّ ما يظهر فيها من فنٍّ وأصالة، يشهد بأنّ
اللفة الإدليبي قد وُلدت، منذ شبابها، قاصّة يُشار إليها بالبنان.

فاضل السباعي

736
32

